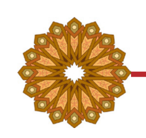


أعدَّه للنشر

محمد بن سليمان المهنا





قال الإمام الحافظ ابن رجب المتوفَّى عام ٧٩٥هـ رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

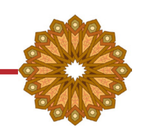
وظائف شهر رمضان المعظَّم

كانَ النَّبيُّ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يُبَشِّرُ أصحابَهُ بقدوم رمضانَ، كما خَرَّجَهُ الإمامُ أحْمَدُ والنّسائِيُّ عن أبي هُرَيْرَةَ، قالَ: كانَ النَّبيُّ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يُبَشِّرُ أصحابَهُ يَقولُ: «قد جاءَكُمْ شهرُ رمضانَ، شهرٌ مباركٌ، كَتَبَ اللهُ عليكُم صيامَهُ، تُفْتَحُ فيهِ أبوابُ السَّماءِ، وتُغْلَقُ فيهِ أبوابُ الجحيم، وتُغَلُّ فيهِ الشَّياطينُ، فيهِ ليلةٌ خيرٌ مِن ألفِ شهرٍ، مَن حُرِمَ خيرَها فقدْ حُرِمَ»[١].

قالَ بعضُ العلماءِ: هذا الحديثُ أصلٌ في تهنئةِ النَّاسِ بعضِهِم بعضًا بشهرِ رمضانَ.

كيفَ لا يُبَشَّرُ المؤمنُ بفتح أبوابِ الجنان؟ كيفَ لا يُبَشَّرُ المذنبُ بغلقِ أبوابِ النِّيرانِ؟! كيف لا يُبَشَّرُ الغافلُ بوقتٍ يُغَلُّ فيهِ الشَّيطانُ؟! مِن أينَ يُشْبِهُ هذا الزَّمانَ زمان.

(١) أخرجه أحمد (٧١٤٨)، والنسائي (٢١٠٦)، وصححه الشيخ الألباني رَحِمَهُ ٱللَّهُ.



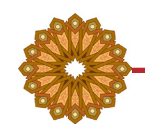
بلوغُ شهرِ رمضانَ وصيامُهُ نعمةٌ عظيمةٌ على مَن أقْدَرَهُ اللهُ عليهِ، ويَدُلُّ عليهِ حديثُ الثَّلاثةِ الذينَ استُشْهِدَ اثنانِ منهُم ثُمَّ ماتَ الثَّالثُ على فراشهِ بعدَهُما، فرُئِيَ في المنامِ سابقًا لهُما، فقالَ النَّبيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «أليسَ صَلَّى بعدَهُما كذا وكذا صلاةً وأدْرَكَ رمضانَ فصامَهُ؟ فوالذي نفسي بيدِهِ، إنَّ بينَهُما لأبعدَ ممَّا بينَ السَّماءِ والأرضِ». خَرَّجَهُ الإمامُ أحمَدُ وغيرُهُ[١].

مَن رُحِمَ في شهرِ رمضانَ فهوَ المرحوم، ومَن حُرِمَ خيرَهُ فهوَ المحروم، ومَن لمْ يَتزَوَّدْ فيهِ لِمَعادِهِ فهوَ ملوم.

أتـى رَمضــانُ مَزْرَعَــةُ العِبادِ   لِتَطْهيرِ القلوبِ مِنَ الفَسادِ
فَــأَدِّ حُقوقَــهُ قَــوْلاً وَفِعــلاً   وَزادَكَ فَاتَّخِذْهُ إلى المعادِ
فمَنْ زرَعَ الحُبوبَ وَما سَقَاها   تَـأَوَّهَ نَـادِمًا يَـوْمَ الحَصادِ

يا مَن طالَتْ غيبتُهُ عنَّا! قدْ قَرُبَتْ أيَّامُ المصالحة. يا مَن دَامَتْ خسارتُهُ! قد أقْبَلَتْ أيَّامُ التِّجارةِ الرَّابحةِ

(١) أخرجه أحمد (١٤٠٣)، وإسناده صحيح



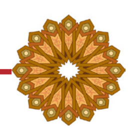
مَنْ لمْ يَرْبَحْ في هذا الشَّهرِ ففي أيِّ وقتٍ يَرْبَح؟! مَن لمْ يَقْرُبْ فيهِ مِن مولاهُ فهوَ على بُعدِهِ لا يَبْرَح.

كَمْ يُنادى حَيَّ على الفلاحِ وأنتَ خاسر! كم تُدْعى إلى الصَّلاحِ وأنتَ على الفسادِ مثابر!

إذا رَمَضانُ أتى مُقْبِلا فَأَقْبِلْ فَبِالخَيْرِ يُسْتَقْبَلُ
لَعَلَّكَ تُخْطِئُهُ قابِلا وَتَأْتِي بِعُذْرٍ فلا يُقْبَلُ

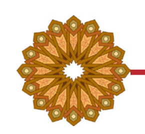
كم ممَّن أمَّلَ أنْ يَصومَ هذا الشَّهر فخانَهُ أملُهُ فصارَ قبلَهُ إلى ظلمةِ القبر!

خَطَبَ عُمَرُ بنُ عَبْدِ العَزيزِ آخرَ خطبةٍ خَطَبَها فقالَ فيها: إنَّكُم لمْ تُخْلَقوا عبثًا، ولنْ تُتْرَكوا سدى، وإنَّ لكُم معادًا يَنْزِلُ اللهُ فيهِ للفصلِ بينَ عبادِهِ، فقد خابَ وخَسِرَ مَن خَرَجَ من رحمةِ اللهِ التي وَسِعَتْ كلَّ شيءٍ وحُرِمَ جنَّةً عرضُها السَّماواتُ والأرضُ. ألا تَرَوْنَ أنَّكُم في أسلابِ الهالكينَ، وسَيَرِثُها بعدَكُمُ الباقونَ كذلكَ حتَّى تُرَدَّ إلى خيرِ الوارثينَ؟!

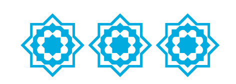


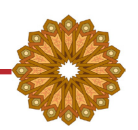
وفي كلِّ يوم تُشَيِّعونَ غاديًا ورائحًا إلى اللهِ قد قَضى نحبَهُ وانْقَضى أجلُهُ، فتُوَدِّعونَهُ وتَدَعونَهُ في صدعٍ مِن الأرضِ غيرِ موسَّدٍ ولا ممهَّدٍ، قد خَلَعَ الأسبابَ وفارَقَ الأحبابَ وسَكَنَ التُّرابَ وواجَهَ الحسابَ، غنيًا عمَّا خَلَّفَ فقيرًا إلى ما أسْلفَ، فاتَّقوا اللهَ عبادَ اللهِ قبلَ نزولِ الموتِ وانقضاءِ مواقيتِهِ، وإنِّي لأقولُ لكُم هذِهِ المقالَةَ وما أعلَمُ عندَ أحدٍ مِن الذُّنوبِ أكثرَ ممَّا أعلَمُ عندي، ولكنِّي أَسْتَغْفِرُ اللهَ وأتوبُ إليهِ. ثمَّ رَفَعَ طرفَ ردائِهِ وبَكى حتَّى شَهَقَ، ثمَّ نَزَلَ عنِ المنبرِ فما عادَ إلى المنبرِ بعدَها حتَّى ماتَ رحمةُ اللهِ عليهِ.

يا ذا الذي ما كَفاهُ الذَّنْبُ في رَجَبٍ ... حَتَّى عَصى رَبَّهُ في شَهْرِ شَعْبانِ
لَقَدْ أظَلَّكَ شَهْرُ الصَّوْمِ بَعْدَهُما ... فَلا تُصَيِّرْهُ أَيْضًا شَهْرَ عِصْيانِ
وَاتْلُ القُرانَ وَسَبِّحْ فيهِ مُجتَهِدًا ... فَإِنَّهُ شَهْرُ تَسْبيحٍ وَقُرْآنِ
وَاحْمِلْ عَلى جَسَدٍ تَرْجو النَّجاةَ لَهُ ... فَسَوْفَ تُضْرَمُ أَجْسامٌ بِنيرانِ
كَمْ كُنْتَ تَعْرِفُ مِمَّنْ صامَ في سَلَفٍ ... مِنْ بَيْنِ أهلٍ وجيرانٍ وَإخوانِ
أفْناهُمُ المَوْتُ وَاسْتَبقاكَ بَعْدَهُمُ ... حَيًّا فَما أقْرَبَ القاصي مِنَ الدَّاني



وَمُعْجَبٍ بِثيابِ العيدِ يَقْطَعُها فَأَصْبَحَتْ في غدٍ أثْوابَ أكْفانِ
حَتَّى مَتى يَعْمُرُ الإنْسانُ مَسْكَنَهُ مَصيرُ مَسْكَنِهِ قَبْرٌ لإنْسانِ





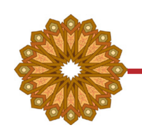
المجلس الأوَّل

في فضل الصِّيام

في الصَّحيحين: عن أبي هُرَيْرَة، عن النَّبيِّ ﷺ؛ قالَ: «كلُّ عملِ ابنِ آدَمَ لهُ؛ الحسنةُ بعشرِ أمثالِها إلى سبعِ مئةِ ضعفٍ. قالَ الله عَزَّوَجَلَّ: إلاَّ الصِّيامَ، فإنَّهُ لي وأنا أجْزي بِهِ. إنَّهُ تَرَكَ شهوتَهُ وطَعامَهُ وشرابَهُ مِن أجلي. للصَّائمِ فرحتانِ: فرحةٌ عند فطرِهِ، وفرحةٌ عندَ لقاءِ ربِّهِ. ولَخُلوفُ فَمِ الصَّائمِ عندَ اللهِ أطيَبُ مِن ريحِ المسكِ»[1]. وفي روايةٍ: «كلُّ عملِ ابنِ آدَمَ لهُ إلاَّ الصِّيامَ فإنَّهُ لي». وفي روايةٍ للبُخاريِّ: «لكلِّ عملٍ كفَّارةٌ، والصَّومُ لي وأنا أجْزي بهِ». وخَرَّجَهُ الإمامُ أحْمَدُ مِن هذا الوجهِ ولفظُهُ: «كلُّ عملِ ابنِ آدَمَ كفَّارةٌ؛ إلاَّ الصَّومَ، والصَّومُ لي، وأنا أجْزي بهِ».

فإنَّ الصِّيامَ مِن الصَّبرِ، وقد قالَ اللهُ: ﴿إِنَّمَا يُوَفَّى ٱلصَّٰبِرُونَ

(١) أخرجه البخاري (٧٤٦٢)، ومسلم (١١٥١).



أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿١٠﴾ ﴾ [الزُّمَر: ١٠].

۞ والصَّبرُ ثلاثةُ أنواعٍ:

* صبرٌ على طاعةِ اللهِ عَزَّوَجَلَّ.

* وصبرٌ عن محارمِ اللهِ.

* وصبرٌ على أقدارِ اللهِ المؤلمةِ.

وتَجتَمعُ الثَّلاثةُ كلُّها في الصَّوم، فإنَّ فيهِ صبرًا على طاعةِ اللهِ، وصبرًا عمَّا حَرَّمَ اللهُ على الصَّائمِ مِن الشَّهواتِ، وصبرًا على ما يَحْصُلُ للصَّائمِ فيه مِن ألمِ الجوعِ والعطشِ وضعفِ النَّفسِ والبدنِ.

وهذا الألمُ النَّاشئُ مِن أعمالِ الطَّاعاتِ يُثابُ عليهِ صاحبُهُ، كما قالَ تَعالَى في المجاهدينَ: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ لَا يُصِيبُهُمْ ظَمَأٌ وَلَا نَصَبٌ وَلَا مَخْمَصَةٌ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا يَطَـُٔونَ مَوْطِئًا يَغِيظُ ٱلْكُفَّارَ وَلَا يَنَالُونَ مِنْ عَدُوٍّ نَّيْلًا إِلَّا كُتِبَ لَهُم بِهِۦ عَمَلٌ صَٰلِحٌ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴾ [التوبة: ١٢٠].

واعْلَمْ أنَّ مضاعفةَ الأجرِ للأعمالِ تَكونُ بأسبابٍ:

منها: شرفُ المكانِ المعمولِ فيهِ ذلكَ العملُ، كالحرمِ.

ولذلكَ تُضاعَفُ الصَّلاة في مسجدَي مَكَّةَ والمَدينَةِ، كما ثَبَتَ ذلكَ في الحديثِ الصَّحيحِ عنِ النَّبيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؛ قالَ: «صلاةٌ في مسجدي هذا خيرٌ مِن ألفِ صلاةٍ فيما سِواهُ مِن المساجدِ إلاَّ المسجدَ الحرامَ»[1]. وفي روايةٍ: «فإنَّهُ أفضلُ».

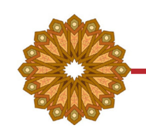
ومنها: شرفُ الزَّمانِ، كشهرِ رمضانَ وعشرِ ذي الحجَّةِ.

وقد يُضاعَفُ الثَّوابُ بأسبابٍ أُخَرَ منها: شرفُ العاملِ عندَ اللهِ وقربُهُ منهُ وكثرةُ تقواهُ، كما ضوعِفَ أجرُ هذهِ الأمَّةِ على أُجورِ مَن قبلَهُم مِن الأُمَمِ وأُعْطُوا كفلينِ مِن الأجرِ.

وأمَّا قولُهُ: «فإنَّهُ لي»؛ فإنَّ اللهَ خَصَّ الصّيامَ بإضافتِهِ إلى نفسِهِ دونَ سائرِ الأعمالِ، وقد كَثُرَ القولُ في معنى ذلكَ، ومِن أحسنِ ما ذُكِرَ فيهِ وجهانِ:

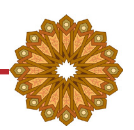
---

(١) أخرجه البخاري (١١٩٠)، ومسلم (١٣٩٤).



أحَدُهُما: أنَّ الصِّيامَ هوَ مجرَّدُ تركِ حظوظِ النَّفسِ وشهواتِها الأصليَّةِ التي جُبِلَتْ على الميلِ إليها للهِ عَزَّوَجَلَّ، ولا يوجَدُ ذلكَ في عبادةٍ أخرى غيرَ الصِّيامِ: لأنَّ الإحرامَ إنَّما يُتركُ فيهِ الجماعُ ودواعيهِ مِن الطِّيبِ دونَ سائرِ الشَّهواتِ مِن الأكلِ والشُّربِ. وكذلكَ الاعتكافُ معَ أنَّه تابعٌ للصَّومِ.

وأمَّا الصَّلاةُ، فإنَّهُ وإنْ ترَكَ المصلِّي فيها جميعَ الشَّهواتِ؛ إلاَّ أنَّ مدَّتَها لا تَطولُ، فلا يَجِدُ المصلِّي فقدَ الطَّعامِ والشَّرابِ في صلاتِهِ، بل قد نُهِيَ أن يُصَلِّيَ ونفسُهُ تَتوقُ إلى الطَّعامِ بحضرتِهِ حتَّى يَتَناولَ منهُ ما يُسَكِّنُ نفسَهُ. ولهذا أُمِرَ بتقديمِ العَشاءِ على الصَّلاةِ. وذَهَبَتْ طائفةٌ مِن العلماءِ إلى إباحةِ شربِ الماءِ في صلاةِ التَّطوُّعِ، وكانَ ابنُ الزُّبَيْرِ يَفْعَلُهُ في صلاتِهِ، وهوَ روايةٌ عنِ الإمامِ أحْمَدَ. وهذا بخلافِ الصِّيامِ، فإنَّهُ يَسْتَوعِبُ النَّهارَ كلَّهُ، فيَجِدُ الصَّائمُ فقدَ هذهِ الشَّهواتِ، وتَتُوقُ نفسُهُ إليها، وخصوصًا في نهارِ الصَّيفِ؛ لشدَّةِ حرِّهِ وطولِهِ. ولهذا رُوِيَ أنَّ مِن خصالِ الإيمانِ الصَّومَ في الصَّيفِ.

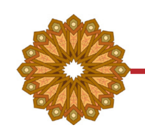


فإذا اشْتَدَّ توقَانُ النَّفسِ إلى ما تَشْتَهيهِ معَ قدرتِها عليهِ ثمَّ تَرَكَتْهُ للهِ عَزَّوَجَلَّ في موضعٍ لا يَطَّلِعُ عليهِ إلاَّ اللهُ؛ كانَ ذلكَ دليلاً على صحَّةِ الإيمانِ؛ فإنَّ الصَّائمَ يَعْلَمُ أنَّ لهُ ربًّا يَطَّلِعُ عليهِ في خلوتِهِ، وقد حَرَّمَ عليهِ أنْ يَتَناوَلَ نَهيَهُ خوفًا مِن عقابِهِ ورغبةً في ثوابِهِ، فشَكَرَ اللهُ لهُ ذلكَ واخْتَصَّ لنفسِهِ عملَهُ هذا مِن بينِ سائرِ أعمالِهِ. ولهذا قالَ بعدَ ذلكَ: «إنَّهُ تَرَكَ شهوتَهُ وطَعامَهُ وشرابَهُ مِن أجلي».

قالَ بعضُ السَّلفِ: طوبى لمَن تَرَكَ شهوةً حاضرةً لموعدِ غيبٍ لمْ يَرَهُ.

لمَّا عَلِمَ المؤمِنُ الصَّائمُ أنَّ رضى مولاهُ في تركِ شهواتِهِ، قَدَّمَ رضى مولاهُ على هواهُ، فصارَتْ لذَّتُهُ في تركِ شهوتِهِ للهِ - لإيمانِهِ باطِّلاعِ اللهِ عليه وثوابِهِ وعقابِهِ - أعظَمَ مِن لذَّتِهِ في تناولِها في الخلوةِ؛ إيثارًا لرضى ربِّهِ على هوى نفسِهِ.

وإذا كانَ هذا فيما حُرِّمَ لعارضِ الصَّومِ مِن الطَّعامِ والشَّرابِ ومباشرةِ النِّساءِ، فيَنْبَغي أنْ يتأكَّدَ ذلكَ فيما حُرِّمَ على الإطلاقِ

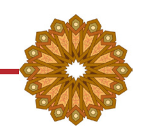


كالزِّنى وشربِ الخمرِ وأخذِ الأموالِ أوِ الأعراضِ بغيرِ حقّ وسفكِ الدِّماءِ المحرَّمةِ؛ فإنَّ هذا يُسْخِطُ اللهَ على كلِّ حالٍ وفي كلِّ زمان ومكانٍ، فإذا كمَلَ إيمانُ المؤمنِ؛ كَرِهَ ذلكَ كلَّهُ أعظَمَ مِن كراهتِهِ للقتلِ والضَّربِ.

ولهذا جَعَلَ رسولُ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مِن علاماتِ وجودِ حلاوةِ الإيمانِ: أنْ يَكْرَهَ أنْ يرجِعَ إلى الكفرِ بعدَ أنْ أنقذَهُ اللهُ كما يَكْرَهُ أنْ يُلْقى في النَّارِ.

وقالَ يوسُفُ عَلَيْهِ السَّلَامُ: ﴿رَبِّ ٱلسِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِيٓ إِلَيْهِ﴾ [يوسف:٣٣].

الوجهُ الثَّاني: أنَّ الصِّيامَ سرٌّ بينَ العبدِ وربِّهِ لا يَطَّلِعُ عليهِ غيرُهُ؛ لأنَّهُ مركَّبٌ مِن نيَّةٍ باطنةٍ لا يطَّلِعُ عليها إلاَّ اللهُ، وتركٍ لتناولِ الشَّهواتِ التي يُسْتَخْفَى بتناولِها في العادةِ، ولذلكَ قيلَ: الصوم لا تَكْتُبُهُ الحفظةُ. وقيلَ: إنَّهُ ليسَ فيهِ رياءٌ. كذا قالَهُ الإمامُ أحمَدُ وغيرُهُ.



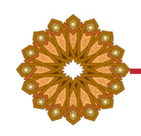
وقَوْلُهُ «تَرَكَ شهوتَهُ وطعامَهُ وشرابَهُ مِن أجلي» فيه إشارةٌ إلى المعنى الذي ذكَرْناهُ، وأنَّ الصَّائمَ تَقَرَّبَ إلى اللهِ بتركِ ما تَشْتَهِيهِ نفسُهُ مِن الطَّعامِ والشَّرابِ والنِّكاحِ، وهذهِ أعظمُ شهواتِ النَّفسِ.

۞ وفي التَّقَرُّبِ بتركِ هذه الشَّهواتِ بالصِّيامِ فوائدُ:

منها: كسرُ النَّفسِ؛ فإنَّ الشِّبَعَ والرَّيَّ ومباشرةَ النِّساءِ تَحمِلُ النَّفسَ على الأشرِ والبطرِ والغفلةِ.

ومنها: تخلِّي القلبِ للفكرِ والذِّكرِ؛ فإنَّ تناولَ هذهِ الشَّهواتِ قد تُقَسِّي القلبَ وتُعْميهِ وتَحولُ بينَ العبدِ وبينَ الفكرِ والذِّكرِ وتَسْتَدْعي الغفلةَ. وخلوُّ الباطنِ مِن الطَّعامِ والشَّرابِ يُنوِّرُ القلبَ ويوجِبُ رقَّتَهُ ويُزيلُ قسوتَهُ ويُخليهِ للذِّكرِ والفكرِ.

ومنها: أنَّ الغنيَّ يَعْرِفُ قدرَ نعمةِ اللهِ عليهِ بإقدارِهِ لهُ على ما مَنَعَهُ كثيرًا مِن الفقراءِ مِن فضولِ الطَّعامِ والشَّرابِ والنِّكاحِ؛



فإنَّهُ بامتناعِهِ مِن ذلكَ في وقتٍ مخصوصٍ وحصولِ المشقةِ لهُ بذلكَ يَتَذَكَّرُ بهِ مَن مُنِعَ مِن ذلكَ على الإطلاقِ، فيوجِبُ لهُ ذلكَ شكرَ نعمةِ اللهِ عليهِ بالغنى، ويَدْعوهُ إلى رحمةِ أخيهِ المحتاجِ ومواساتِهِ بما يُمْكِنُ مِن ذلكَ.

ومنها: أنَّ الصِّيامَ يُضَيِّقُ مجاريَ الدَّمِ التي هيَ مجاري الشَّيطانِ مِن ابنِ آدَمَ؛ فإنَّ الشَّيطانَ يَجْرِي مِنِ ابنِ آدَمَ مجرى الدَّمِ، فتَسْكُنُ بالصِّيامِ وساوسُ الشَّيطانِ، وتَنْكَسِرُ سَوْرَةُ الشَّهوةِ والغضبِ[1]، ولهذا جَعَلَ النَّبيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الصِّيامَ وجاءً؛ لقطعِهِ عن شهوةِ النِّكاحِ.

واعْلَمْ أنَّهُ لا يَتِمُّ التَّقَرُّبُ إلى اللهِ تعالى بتركِ هذهِ الشَّهواتِ المباحةِ في غيرِ حالةِ الصِّيامِ إلاَّ بعدَ التَّقَرُّبِ إليهِ بتركِ ما حَرَّمَهُ اللهُ في كلِّ حالٍ مِن الكذبِ والظُّلمِ والعدوانِ على النَّاسِ في دمائِهِم وأموالِهِم وأعراضِهِم.

---

(١) سَوْرَة الشيء شِدَّته، يقال: سَورة الغضب وسَورة الشهوة وسَورة البرد، وهكذا.

ولهذا قالَ النَّبيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «مَن لم يَدَعْ قولَ الزُّورِ والعملَ بهِ، فليسَ للهِ حاجةٌ في أن يَدَعَ طعامَهُ وشرابَهُ». خَرَّجَهُ البُخَارِيُّ[1].

وقالَ جابرٌ: إذا صُمْتَ؛ فلْيَصُمْ سمعُكَ وبصرُكَ ولسانُكَ عنِ الكذبِ والمحارمِ، ودَعْ أذى الجارِ، ولْيَكُنْ عليكَ سكينةٌ ووقارٌ يومَ صومِكَ، ولا تَجْعَلْ يومَ صومِكَ ويومَ فطرِكَ سواءً.

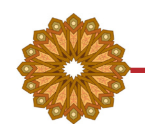
إذا لَمْ يَكُنْ في السَّمْعِ مِنِّي تَصاوُنٌ ... وَفي بَصَري غَضٌّ وَفي مَنْطِقِي صَمْتُ
فَحَظِّي إذن مِنْ صَوْمِيَ الجوعُ وَالظَّمأُ ... فَإِنْ قُلْتُ إنِّي صُمْتُ يَومي فَما صُمْتُ

وقالَ النَّبيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «ربَّ صائمٍ حظُّهُ مِن صيامِهِ الجوعُ والعطشُ، وربَّ قائمٍ حظُّهُ من قيامِهِ السَّهَرُ»[2].

---

(١) أخرجه البخاري (١٩٠٣).

(٢) أخرجه أحمد (٨٨٥٦)، وابن ماجه (١٦٩٠)، والحاكم (١/ ٥٩٦)، وقال الحاكم: صحيح على شرط البخاري.



ولهذا المعنى - والله أعلمُ - وَرَدَ في القرآنِ بعدَ ذكرِ تحريمِ الطَّعامِ والشَّرابِ على الصَّائم بالنَّهارِ ذكرُ تحريمِ أكلِ أموالِ النَّاس بالباطلِ؛ فإنَّ تحريمَ هذا عامٌ في كلِّ زمانٍ ومكانٍ، بخلافِ الطَّعامِ والشَّرابِ، فكانَ إشارةً إلى أنَّ مَنِ امتثَلَ أمرَ اللهِ في اجتنابِ الطَّعامِ والشَّرابِ في نهارِ صومِهِ، فلْيَمتثل أمرَهُ في اجتنابِ أكلِ الأموالِ بالباطلِ؛ فإنَّهُ محرَّمٌ بكلِّ حالٍ لا يُباحُ في كلِّ وقتٍ منَ الأوقاتِ. واللهُ أعلمُ.

وقولُهُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «وللصَّائمِ فرحتان: فرحةٌ عندَ فطرِهِ، وفرحةٌ عند لقاءِ ربِّهِ»[1].

أمَّا فرحةُ الصَّائم عندَ فطرِهِ؛ فإنَّ النُّفوسَ مجبولةٌ على الميلِ إلى ما يُلائِمُها مِن مطعمٍ ومشربٍ ومنكحٍ، فإذا مُنِعتْ منهُ في وقت من الأوقات ثمَّ أُبيح لها في وقتٍ آخر فرِحتْ بإباحة ما مُنِعَتْ منه، خصوصًا عندَ اشتدادِ الحاجةِ إليهِ؛ فإنَّ النُّفوسَ تَفْرَحُ بذلكَ طبعًا، فإنْ كانَ ذلكَ محبوبًا للهِ، كانَ

(١) تقدَّم تخريجه.

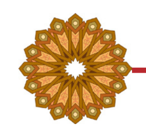
محبوبًا شرعًا، والصَّائمُ عندَ فطرِهِ كذلكَ، فكما أنَّ اللهَ تعالَى حَرَّمَ على الصَّائمِ في نهارِ الصَّوم تناولَ هذهِ الشَّهواتِ فقد أذِن لهُ فيها في ليلِ الصِّيامِ، بلْ أحَبَّ منهُ المبادرةَ إلى تناولِها في أوَّلِ الليلِ وآخرِهِ، فأحبُّ عبادِهِ إليهِ أعجَلُهُم فطرًا، واللهُ وملائكتُهُ يُصَلُّونَ على المتسحِّرينَ.

فالصَّائمُ تَرَكَ شهواتِهِ للهِ بالنَّهارِ تقرُّبًا إليهِ وطاعةً لهُ، وبادَرَ إليها في الليلِ تقرُّبًا إلى اللهِ وطاعةً لهُ، فَما ترَكَها إلاَّ بأمرِ ربِّهِ ولا عادَ إليها إلاَّ بأمرِ ربِّهِ، فهوَ مطيعٌ لهُ في الحالينِ. فإذا بادرَ الصَّائمُ إلى الفطرِ تقرُّبًا إلى مولاهُ، وأكلَ وشرِبَ وحَمِدَ اللهَ؛ فإنَّهُ يُرْجى لهُ المغفرةُ أو بلوغُ الرِّضوانِ بذلكَ.

وفي الحديثِ: «إنَّ اللهَ لَيَرْضى عن عبدِهِ يَأْكلُ الأكلةَ فيَحْمَدُهُ عليها ويَشْرَبُ الشُّربَةَ فيَحْمَدُهُ عليها»[(١)]. وربَّما اسْتُجيبَ دعاؤُهُ عندَ ذلكَ، كما في الحديثِ المرفوعِ الذي خَرَّجَهُ ابنُ ماجَهْ: «إنَّ للصَّائمِ عندَ فطرِهِ دعوةً ما تُرَدُّ»[(٢)]. وإنْ

---

(١) أخرجه مسلم (٢٧٣٤).
(٢) أخرجه ابن ماجه (١٧٥٣) وفي إسناده مقال.

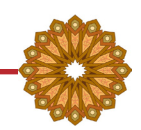


نَوى بأكلِهِ وشربِهِ تقويةَ بدنِهِ على القيامِ والصِّيامِ، كانَ مثابًا على ذلكَ، كما أنَّهُ إذا نَوى بنومِهِ في الليلِ والنَّهارِ التَّقوِّيَ على العملِ، كانَ نومُهُ عبادةً.

قالَتْ حَفْصَةُ بنتُ سِيرينَ: قالَ أبو العالِيَةِ: الصَّائمُ في عبادةٍ ما لَمْ يَغْتَبْ أحدًا وإنْ كانَ نائمًا على فراشِهِ. قالَ: وكانَتْ حَفْصَةُ تَقولُ: يا حَبَّذا عبادةٌ وأنا نائمةٌ على فراشي. خَرَّجَهُ عَبْدُ الرَّزَّاقِ.

فالصَّائمُ في ليلِهِ ونهارِهِ في عبادةٍ، ويُسْتَجابُ دعاؤُهُ في صيامِهِ وعندَ فطرِهِ، فهوَ في نهارِهِ صائمٌ صابرٌ، وفي ليلِهِ طاعمٌ شاكرٌ.

ومَنْ فَهِمَ هذا الذي أشَرنا إليهِ، لمْ يَتَوقَّفْ في معنى فرحِ الصَّائمِ عندَ فطرِهِ، فإنَّ فطرَهُ على الوجهِ المشارِ إليه مِن فضلِ اللهِ ورحمتِهِ، فيَدْخُلُ في قولِهِ تعالَى: ﴿ قُلْ بِفَضْلِ ٱللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِۦ فَبِذَٰلِكَ فَلْيَفْرَحُوا۟ هُوَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ ﴾ [يونس:٥٨].



وأمَّا فرحُهُ عندَ لقاءِ ربِّهِ؛ فبما يَجِدُهُ عندَ اللهِ مِن ثوابِ الصِّيامِ مدَّخرًا، فيَجِدُهُ أحوجَ ما كانَ إليهِ:

* كما قالَ تَعالَى: ﴿وَمَا تُقَدِّمُوا۟ لِأَنفُسِكُم مِّنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِندَ ٱللَّهِ هُوَ خَيْرًا وَأَعْظَمَ أَجْرًا ۚ وَٱسْتَغْفِرُوا۟ ٱللَّهَ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌۢ﴾ [المزَّمل: ٢٠].

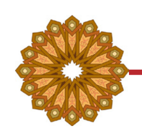
* وقالَ تعالَى: ﴿يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُّحْضَرًا﴾ [آل عمران: ٣٠].

* وقالَ تعالَى: ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ﴾ [الزلزلة: ٧].

فالأيَّامُ خزائنُ للنَّاسِ ممتلئةٌ بما خَزَنوهُ فيها مِن خيرٍ وشرٍّ، وفي يومِ القيامةِ تُفتَحُ هذهِ الخزائنُ لأهلِها، فالمتَّقونَ يَجدونَ في خزائنِهِمُ العزَّ والكرامةَ، والمذنبونَ يَجِدونَ في خزائنِهِمُ الحسرةَ والنَّدامةَ.

الصَّائمونَ على طبقتينِ:

إحداهُما: مَن تركَ طعامَهُ وشرابَهُ وشهوتَهُ للهِ يَرْجو عندَهُ



عوضَ ذلكَ في الجنَّةِ، فهذا قد تاجَرَ معَ اللهِ وعامَلَهُ، واللهُ تعالَى لا يُضِيعُ أجرَ مَن أحْسَنَ عملاً ولا يَخِيبُ معهُ مَن عامَلَهُ، بل يَرْبَحُ عليهِ أعظمَ الرِّبْحِ.

وقالَ النَّبيُّ ﷺ لرجلٍ: «إنَّكَ لنْ تَدعَ شيئًا اتِّقاءَ اللهِ إلاَّ آتاكَ اللهُ خيرًا منه». خرَّجَهُ الإمامُ أحمدُ[1].

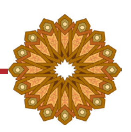
فهذا الصَّائمُ يُعطَى في الجنَّةِ ما شاءَ اللهُ مِن طعامٍ وشرابٍ ونساءٍ.

قالَ اللهُ تعالَى: ﴿كُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ هَنِيٓـًٔا بِمَآ أَسْلَفْتُمْ فِى ٱلْأَيَّامِ ٱلْخَالِيَةِ﴾ [الحاقة: ٢٤]. قالَ مُجاهِدٌ وغيرُهُ: نَزَلَتْ في الصَّائمينَ.

وفي الصَّحيحينِ: عنِ النَّبيِّ ﷺ، قالَ: «إنَّ في الجنَّةِ بابًا يُقالُ لهُ الرَّيَّانُ، يَدْخُلُ منهُ الصَّائمونَ، لا يَدْخُلُ منهُ غيرُهُم». وفي روايةٍ: «فإذا دَخَلوا أُغْلِقَ». وفي روايةٍ: «مَن

---

(١) أخرجه أحمد (٢٠٧٣٨)، وقال الهيثمي في مجمع الزوائد (١٠/ ٢٩٩): رجاله ثقات.



دَخَلَ منهُ شَرِبَ، ومَن شرِبَ لمْ يَظْمأْ أبدًا».

مَنْ ترَكَ للهِ في الدُّنيا طعامًا وشرابًا وشهوةً مدَّةً يسيرةً عوَّضَهُ اللهُ عندَهُ طعامًا وشرابًا لا يَنفَدُ وأزواجًا لا يَمُتْنَ أبدًا[1].

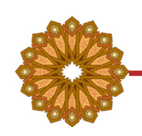
مهور الحورِ طوالُ التَّهَجُّدِ، وهوَ حاصلٌ في شهرِ رمضانَ أكثرَ مِن غيرِهِ.

مَـن يُـرِدْ مُـلْـكَ الـجِـنانِ	فَـلْـيَـدَعْ عَـنْـهُ الـتَّـواني
وَلْـيَـقُـمْ في ظُـلْـمَـةِ الـلَّـيْـ	ـلِ إلـى نـورِ الـقُـرانِ
ولْـيَـصِـلْ صَـوْمًـا بِـصَـوْمٍ	إنَّ هـذا الـعَـيْـشَ فـاني
إنَّـمـا الـعَـيْـشُ جِـوارُ الـ	ـلـهِ في دارِ الأمـانِ

الطَّبقَةُ الثَّانيةُ مِن الصَّائمينَ: مَن يَصومُ في الدُّنيا عمَّا سِوى اللهِ، فيَحْفَظُ الرَّأسَ وما حَوى، ويَحْفَظُ البطنَ وما وَعى، ويَذْكُرُ الموتَ والبِلى، ويُريدُ الآخرةَ فيَتْرُكُ زينةَ الدُّنيا، فهذا عيدُ فطرِهِ يومَ لقاءِ ربِّهِ وفرحِهِ برؤيتِهِ.

---

(١) أخرجه البخاري (١٨٩٦)، ومسلم (١١٥٢) عن سهل بن سعد.



مَن صامَ عن شهواتِهِ في الدُّنيا، أدْرَكَها غدًا في الجنَّةِ. ومَن صامِ عمَّا سِوى اللهِ، فعيدُهُ يومَ لقائِهِ.

﴿مَن كَانَ يَرْجُوا۟ لِقَآءَ ٱللَّهِ فَإِنَّ أَجَلَ ٱللَّهِ لَـَٔاتٍ ۚ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ﴾

[العنكبوت:٥].

وَقَدْ صُمْتُ عَنْ لَذَّاتِ دَهْرِيَ كُلِّها ... وَيَـوْمَ لِقاكُمْ ذاكَ فِطْرُ صِيامِي

يا معشرَ الصَّائمينَ! صوموا اليومَ عن شهواتِ الهوى، لِتُدْرِكوا عيدَ الفطرِ يومَ اللقاءِ، لا يَطولَنَّ عليكُمُ الأمدُ باستبطاءِ الأجلِ؛ فإنَّ معظمَ نهارِ الصِّيامِ قد ذهَبَ وعيدُ اللقاءِ قدِ اقترَب.

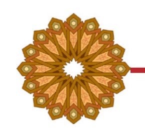
قولُهُ: «ولَخُلوفُ فمِ الصَّائمِ أطيبُ عندَ اللهِ مِن ريحِ المسكِ»: خُلوفُ الفمِ: رائحةُ ما يَتَصاعَدُ منهُ مِن الأبخرةِ، لخلوِّ المعدةِ مِن الطَّعامِ بالصِّيامِ. وهيَ رائحةٌ مستكرهةٌ في مشامِّ النَّاسِ في الدُّنيا، لكنَّها طيِّبَةٌ عندَ اللهِ حيثُ كانَتْ ناشئةً عن طاعتِهِ وابتغاءِ مرضاتِهِ، كما أنَّ دمَ الشَّهيدِ يَجيءُ يومَ القيامةِ يَثْعَبُ دمًا، لونُهُ لونُ الدَّمِ، وريحُهُ ريحُ المسكِ.

۞ وفي طيبِ ريحِ خُلوفِ فمِ الصَّائمِ عندَ اللهِ عَزَّوَجَلَّ معنيانِ:

أحدُهُما: أنَّ الصِّيامَ لمَّا كان سرًّا بينَ العبدِ وربِّهِ في الدُّنيا، أَظْهَرهُ اللهُ في الآخرةِ علانيةً للخلقِ، لِيَشْتَهِرَ بذلكَ أهلُ الصِّيامِ ويُعرَفوا بصيامِهِم بينَ النَّاسِ جزاءً لإخفائِهِم صيامَهُم في الدُّنيا.

والمعنى الثَّاني: أنَّ مَن عَبَدَ اللهَ وأطاعَهُ وطَلَبَ رضاهُ في الدُّنيا بعملٍ، فنَشَأ مِن عملِهِ آثارٌ مكروهةٌ للنُّفوسِ في الدُّنيا، فإنَّ تلك الآثارَ غير مكروهةٍ عند اللهِ، بل هيَ محبوبةٌ لهُ وطيِّبةٌ عندَهُ، لكونها نشأتْ عن طاعتِهِ واتِّباعِ مرضاتِهِ. فإخبارُهُ بذلك للعاملين في الدُّنيا فيه تطييبٌ لقلوبِهِم، لئلاَّ يُكْرَه منهُم ما وُجِدَ في الدُّنيا.

كُلُّ شيءٍ ناقصٍ في عرفِ النَّاسِ في الدُّنيا إذا انْتَسَبَ إلى طاعتِهِ ورضاهُ فهوَ الكاملُ في الحقيقةِ.



خُلوفُ أفواهِ الصَّائمينَ لهُ أطيبُ مِن ريحِ المسكِ، عُريُّ المحرمينَ لزيارةِ بيتِهِ أجملُ مِن لباسِ الحللِ، نَوْحُ المذنبينَ على أنفسِهِم مِن خشيتِهِ أفضلُ مِن التَّسبيحِ، انكسارُ المخبتينَ لعظمتِهِ هوَ الجبرُ، ذلُّ الخائفينَ مِن سطوتِهِ هوَ العزُّ، بذلُ النُّفوسِ للقتلِ في سبيلِهِ هوَ الحياةُ، جوعُ الصَّائمينَ لأجلِهِ هوَ الشِّبعُ، عطشُهُم في طلبِ مرضاتِهِ هو الرِّيُّ، نَصَبُ المجتهدينَ في خدمتِهِ هوَ الرَّاحةُ.

ذُلُّ الفَتــى في الحــبِّ مَكْرُمَةٌ وَخُضـوعُـهُ لِحَبيبِهِ شَـرَفُ

هَبَّتِ اليومَ على القلوبِ نفحةٌ مِن نفحاتِ نسيمِ القربِ.

لمَّا سُلْسِلَ الشَّيطانُ في شهرِ رمضانَ وخَمَدَتْ نيرانُ الشَّهواتِ بالصِّيامِ؛ انعزَلَ سلطانُ الهوى، وصارَتِ الدَّولةُ لحاكِمِ العقلِ بالعدلِ، فلم يَبْقَ للعاصي عذرٌ.

يا غيومَ الغفلةِ عنِ القلوبِ تَقَشَّعي!

يا شُموسَ التَّقوى والإيمانِ اطْلعي!

يا صحائفَ أعمالِ الصَّالحينَ ارْتَفِعي!

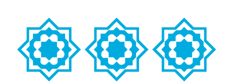
يا قلوبَ الصَّائمينَ اخشَعي!

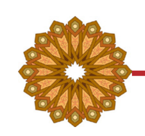
يا أقدامَ المجتهدينَ اسْجُدِي لربِّكِ وارْكَعي!

يا عيونَ المتهجِّدينَ لا تَهْجَعي!

يا ذنوبَ التَّائبين لا تَرْجعِي!

يا أرضَ الهوى ابْلَعي ماءَكِ ويا سماءَ النُّفوسِ أقلِعِي.





المجلس الثاني

في فضل الجود في رمضان وتلاوة القرآن

في الصَّحيحين: عن ابنِ عبَّاسٍ؛ قالَ: «كانَ النَّبيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أجوَدَ النَّاسِ، وكانَ أجودَ ما يكونُ في رمضانَ حينَ يَلْقاهُ جبْريلُ فيُدارِسُهُ القرآنَ، وكانَ جبريلُ يَلْقاهُ في كلِّ ليلةٍ فيُدارِسُهُ القرآنَ، فلَرسولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حينَ يَلْقاهُ جِبْريلُ أجودُ بالخيرِ مِن الرِّيحِ المرسلة»[1].

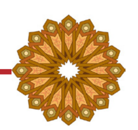
الجودُ هوَ سعةُ العطاءِ وكثرتُهُ، واللهُ تَعالَى يوصَفُ بالجودِ.

فاللهُ سبحانَه أجودُ الأجودينَ، وجودُهُ يَتَضاعَفُ في أوقاتٍ خاصَّةٍ كشهرِ رمضانَ:

وفيهِ أُنْزِلَ قولُهُ تعالَى: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ﴾ [البقرة:١٨٦].

---

(١) أخرجه البخاري (٦)، ومسلم (٣٨٣).



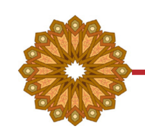
ولمَّا كانَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ قد جبَلَ نبيَّهُ عَلَيْهِ السَّلَامُ على أكملِ الأخلاقِ وأشرفِها كما في حديثِ: أبي هُرَيْرَةَ، عنِ النَّبيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، قالَ: «إنَّما بُعِثْتُ لأتَمِّمَ صالحَ الأخلاقِ»[1]. وذَكَرَهُ مالكٌ في «الموطَّإ» بلاغًا. فكانَ رسولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أجودَ النَّاسِ كلِّهِم.

وكانَ جودُهُ بجميعِ أنواعِ الجودِ مِن: بذلِ العلمِ والمالِ، وبذلِ نفسِهِ للهِ في إظهارِ دينِهِ وهدايةِ عبادِهِ وإيصالِ النَّفعِ إليهِم بكلِّ طريقٍ مِن إطعامِ جائعِهِم ووعظِ جاهِلِهِم وقضاءِ حوائجِهِم وتحمُّلِ أثقالِهِم.

ولمْ يَزَلْ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ على هذهِ الخصالِ الحميدةِ منذُ نَشأَ، ولهذا قالَتْ لهُ خديجَةُ في أوَّلِ مبعثِهِ: واللهِ؛ لا يُخْزيكَ اللهُ أبدًا، إنَّكَ لتَصِلُ الرَّحمَ وتَقْري الضَّيفَ وتَحمِلُ الكَلَّ وتَكْسِبُ المعدومَ وتُعينُ على نوائبِ الحقِّ[2].

---

(١) أخرجه أحمد (٨٩٥١)، والبخاري في «الأدب المفرد» (٢٧٣)، والحاكم (٢/ ٦٧٠)، وقال: صحيح على شرط مسلم.
(٢) أخرجه البخاري (٣)، ومسلم (١٦٠).



ثمَّ تَزايدَتْ هذهِ الخصالُ فيهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ **بعدَ البعثةِ وتَضَاعفَتْ أضعافًا كثيرةً.**

وفي الصَّحيحينِ: عن أنسٍ؛ قالَ: كانَ رسولُ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أحسنَ النَّاسِ وأشجعَ النَّاسِ وأجودَ النَّاسِ[1].

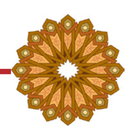
وفي «صحيح مسلم» عنهُ: قالَ: ما سُئِلَ رسولُ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ على الإسلامِ شيئًا إلاَّ أعْطاهُ، فجاءَهُ رجل فأعطاهُ غنمًا بينَ جبلينِ، فرَجَعَ إلى قومِهِ فقالَ: يا قومِ! أسْلموا، فإنَّ مُحَمَّدًا يُعْطي عطاءَ مَن لا يَخْشَى الفاقَة.

وفي روايةٍ لهُ: أنَّ رجلاً سَألَ النَّبيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ غنمًا بينَ جبلينِ، فأعْطاهُ إيَّاهُ، فأتى قومَهُ فقالَ: يا قومِ! أسْلِموا، فإنَّ محمَّدًا يُعْطي عطاءَ مَنْ لا يخافُ الفقرَ. قالَ أنسٌ: إنْ كانَ الرَّجلُ لَيُسْلِمُ ما يُريدُ إلا الدُّنيا، فما يُمسي حتَّى يكونَ الإسلامُ أحبَّ إليهِ مِن الدُّنيا وما عليها[2].

---

(١) أخرجه البخاري (٢٩٠٨)، ومسلم (٢٣٠٧).

(٢) أخرجه مسلم (٢٣١٢).



وفيهِ أيضًا: عن صَفْوانَ بنِ أُمَيَّةَ؛ قالَ: لقد أعْطاني رسولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ما أعْطاني وإنَّهُ لَمِن أبغضِ النَّاسِ إليَّ، فما بَرِحَ يُعْطيني حتَّى إنَّهُ لأحَبُّ النَّاسِ إليَّ. قالَ ابنُ شهابٍ: أعْطاهُ يومَ حنين مئةً مِن النَّعمِ ثمَّ مئةً ثمَّ مئةً[1].

وفي الصَّحيحينِ: عن جُبَيْرِ بنِ مُطْعِمٍ؛ أنَّ الأعرابَ عَلِقوا بالنَّبيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مرجعَهُ مِن حُنَيْنٍ يَسْألونَهُ أنْ يَقْسِمَ بينَهُم. فقالَ: «لو كانَ لي عددُ هذهِ العِضاه نَعَمًا، لَقَسَمْتُهُ بينكُم، ثمَّ لا تَجِدوني بخيلاً ولا كذوبًا ولا جبانًا»[2].

وفيهِما: عن جابرٍ؛ قالَ: ما سُئِلَ رسولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ شيئًا فقالَ: لا. وأنَّهُ قالَ لجابرٍ: «لو جاءَنا مالُ البحرينِ؛ لقد أعْطَيْتُكَ هكذا وهكذا وهكذا (قالَ بيديهِ جميعًا)»[3].

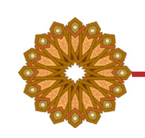
وَخَرَّجَ البُخارِيُّ مِن حديثِ سَهْلِ بنِ سَعْدٍ؛ أنَّ شَمْلَةً

---

(١) أخرجه مسلم (٢٣١٣).

(٢) أخرجه البخاري فقط (٢٨٢١). العِضاه: الشجر. والنَعَم: الإبل.

(٣) أخرجه البخاري (٢٢٩٦)، ومسلم (٢٣١٤).



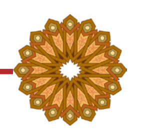
أُهْدِيَتْ للنَّبيِّ صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ، فلَبِسَها وهوَ محتاجٌ إليها، فسَألَهُ إيَّاها رجلٌ فأعْطاهُ، فلامَهُ النَّاسُ وقالوا: كانَ محتاجًا إليها، وقد عَلِمْتَ أنَه لا يَرُدُّ سائلاً! فقالَ: إنَّما سَألْتُها لِتكونَ كفني. فكانَتْ كفنَهُ[1].

وكانَ جودُهُ صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ كلُّهُ للهِ وفي ابتغاءِ مرضاتِهِ؛ فإنَّهُ كانَ يَبْذُلُ المالَ إمَّا لفقيرٍ أو محتاجٍ، أو يُنفِقُهُ في سبيلِ اللهِ، أو يَتألَّفُ بِه على الإسلامِ مَن يَقْوى الإسلامُ بإسلامِهِ.

وكانَ يُؤثِرُ على نفسِهِ وأهلِهِ وأولادِهِ، فيُعْطِي عطاءً يَعْجِزُ عنهُ الملوكُ مثلُ كسرى وقيصرَ ويَعيشُ في نفسِهِ عَيشَ الفقراءِ، فيأتي عليهِ الشَّهْرُ والشَّهرانِ لا يُوقَدُ في بيتِهِ نارٌ، وربَّما رَبَطَ على بطنِهِ الحجرَ مِن الجوعِ.

وكانَ قد أتاهُ صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ سبيٌ مرَّةً، فشَكَتْ إليهِ فاطمَةُ ما تَلْقى مِن خدمةِ البيتِ، وطَلَبَتْ منهُ خادمًا يَكْفِيها مؤونةَ

(١) أخرجه البخاري (١٢٧٧).



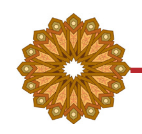
بيتِها، فأمَرَها أنْ تَسْتَعينَ بالتَّسبيحِ والتَّكبيرِ والتَّحميدِ عندَ نومِها، وقالَ: «لا أُعْطِيكِ وأدَعُ أهلَ الصُّفَّةِ تُطْوى بطونُهُم مِن الجوعِ»[1].

وكانَ جودُهُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَتَضاعَفُ في شهرِ رمضانَ على غيرِهِ مِن الشُّهورِ كما أنَّ جودَ ربِّهِ يَتَضاعَفُ فيهِ أيضًا، فإنَّ اللهَ جَبَلَهُ على ما يُحِبُّهُ مِن الأخلاقِ الكريمةِ، وكانَ على ذلك مِن قبلِ البعثةِ.

ثمَّ كانَ بعدَ الرِّسالةِ جودُهُ في رمضانَ أضعافَ ما كانَ قبلَ ذلكَ؛ فإنَّهُ كانَ يَلْتَقِي هوَ وجبريلُ عَلَيْهِ السَّلَامُ، وهوَ أفضلُ الملائكةِ وأكرمُهُم، ويُدارِسُهُ الكتابَ الذي جاءَ بِهِ إليهِ، وهوَ أشرفُ الكتبِ وأفضلُها، وهوَ يَحُثُّ على الإحسانِ ومكارمِ الأخلاقِ.

وقد كانَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ هذا الكتابُ لهُ خلُقًا بحيثُ: يَرْضى

(١) أخرجه أحمد (٥٩٦)، وسنده صحيح وأصله في الصحيحين.



لرضاهُ، ويَسْخَطُ لسخطِهِ، ويُسارِعُ إلى ما حَثَّ عليهِ، ويَمْتَنِعُ ممَّا زَجَرَ عنهُ. فلهذا كانَ يَتَضاعَفُ جودُهُ وإفضالُهُ في هذا الشَّهرِ؛ لقربِ عهدِهِ بمخالطةِ جبريلَ عَلَيْهِ السَّلَامُ، وكثرةِ مدارستِهِ لهُ هذا الكتابَ الكريمَ الذي يَحُثُّ على المكارمِ والجودِ. ولا شكَّ أنَّ المخالطةَ تُؤَثِّرُ وتُورِثُ أخلاقًا مِن المخالطِ.

كانَ بعضُ الشُّعراءِ قدِ امْتَدَحَ ملكًا جوادًا، فأعْطاه جائزةً سَنِيَّةً[١]، فخَرَجَ بها مِن عندِهِ وفَرَّقَها كلَّها على النَّاسِ، وأنْشَدَ:

لَمَسْتُ بِكَفِّي كَفَّهُ أَبْتَغي الغِنى ... وَلَم أَدْرِ أَنَّ الجودَ مِن كفِّهِ يُعْدي

فبَلَغَ ذلكَ الملكَ فأضْعَفَ لهُ الجائزةَ.

وقد قالَ بعضُ الشُّعراءِ يَمْدَحُ بعضَ الأجوادِ - ولا يَصْلُحُ أنْ يكونَ ذلكَ إلا لرسولِ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ -:

تَعَوَّدَ بَسْطَ الكَفِّ حَتَّى لَوَ انَّهُ ... ثَناهَا لِقَبْضٍ لَمْ تُطِعْهُ أَنامِلُهْ

تَـراهُ إذا مـا جِئْتَـهُ مُتَهَلِّـلاً ... كأَنَّكَ تُعْطِيهِ الذي أَنْتَ سائِلُهْ

(١) معنى سنيَّة: أي قيِّمة، عالية القدر.

وَلَوْ لَمْ يَكُنْ فِي كَفِّهِ غَيْرُ رُوحِهِ ... لَجَادَ بِهَا فَلْيَتَّقِ اللهَ سائِلُهْ

هوَ البَحْرُ مِن أيِّ النَّواحي أتيْتَهُ ... فَلُجَّتُهُ المَعْروفُ والجودُ ساحِلُهْ

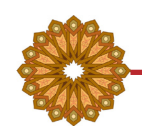
وفي تضاعفِ جودِه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في شهرِ رمضانَ بخصوصِه فوائدُ كثيرةٌ:

منها: شرفُ الزَّمانِ ومضاعفةُ أجرِ العملِ فيهِ.

ومنها: إعانةُ الصَّائمينَ والقائمينَ والذَّاكرينَ على طاعاتِهِم، فَيَسْتَوجِبُ المعينُ لهُم مثلَ أجرِهِم، كما أنَّ مَن جَهَّزَ غازيًا فقد غَزَا ومَن خَلَفَهُ في أهلِهِ فقد غَزا.

وفي حديثِ زَيْدِ بن خالدٍ: عنِ النَّبيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؛ قالَ: «مَن فَطَّرَ صائمًا فلَهُ مثلُ أجرِهِ مِن غيرِ أنْ يَنْقُصَ مِن أجرِ الصَّائم شيءٌ». خَرَّجَهُ الإمامُ أحْمَدُ والنَّسائِيُّ والتِّرْمِذِيُّ وابنُ ماجَهْ[1].

(١) أخرجه أحمد (١٧٠٣٣)، والنسائي في الكبرى (٣٣١٧)، والترمذي (٨٠٧)، وابن ماجه (١٧٤٦).



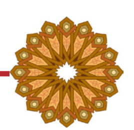
ومنها: أنَّ شهرَ رمضانَ شهرٌ يَجودُ اللهُ فيهِ على عبادِهِ بالرَّحمةِ والمغفرةِ والعتقِ مِن النَّارِ، لا سيَّما في ليلةِ القدرِ، واللهُ تَعالَى يَرْحَمُ مِن عبادِهِ الرُّحماءَ، كما قالَ النَّبيُّ ﷺ: «إنَّما يَرْحَمُ اللهُ مِن عبادِهِ الرُّحماءَ»[1]، فمَن جادَ على عبادِ اللهِ، جادَ اللهُ عليهِ بالعطاءِ والفضلِ، والجزاءُ مِن جنسِ العمل.

ومنها: أنَّ الجمعَ بينَ الصِّيامِ والصَّدقةِ مِن موجباتِ الجنَّةِ، كما في حديثِ عليٍّ عنِ النَّبيِّ ﷺ؛ قالَ: «إنَّ في الجنَّةِ غرفًا يُرى ظهورُها مِن بطونِها وبطونُها مِن ظهورِها». قالوا: لمَن هيَ يا رسولَ اللهِ؟ قالَ: «لمَن طيَّبَ الكلام، وأطْعَمَ الطَّعامَ، وأدامَ الصِّيامَ، وصَلَّى بالليلِ والنَّاسُ نيام»[2].

وهذهِ الخصالُ كلُّها تكونُ في رمضانَ، فيَجْتَمعُ فيهِ للمؤمنِ الصِّيامُ والقيامُ والصَّدقةُ وطيبُ الكلامِ؛ فإنَّهُ يُنْهى فيهِ الصَّائمُ عنِ اللغوِ والرَّفثِ، والصِّيامُ والصَّلاةُ والصَّدقةُ

---

(١) أخرجه البخاري (١٢٨٤)، ومسلم (٩٢٣).
(٢) تقدَّم تخريجه.



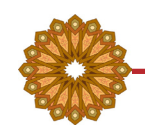
توصِلُ صاحبَها إلى اللهِ عَزَّوَجَلَّ.

وفي «صحيح مسلم»: عن أبي هُرَيْرَةَ، عنِ النَّبيِّ صَلَّاللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ؛ أنَّهُ قالَ: «مَن أصْبَحَ منكُمُ اليومَ صائمًا؟». قالَ أبو بَكْرٍ: أنا. قالَ: «مَن تَبِعَ منكُم اليومَ جنازةً»؟ قالَ أبو بَكْرٍ: أنا. قالَ: «فمَن أطْعَمَ اليومَ مسكينًا؟» قالَ أبو بكرٍ: أنا. قالَ: «مَن تَصَدَّق بصدقةٍ؟». قالَ أبو بكرٍ: أنا. قالَ: «فمَن عادَ منكُم اليومَ مريضًا؟». قالَ أبو بكرٍ: أنا. قالَ: «ما اجْتَمعْنَ في امرئ إلاَّ دَخلَ الجنَّةَ»[1].

ومنها: أنَّ الجمعَ بينَ الصِّيامِ والصَّدقةِ أبلغُ في تكفيرِ الخطايا واتِّقاءِ جهنَّمَ والمباعدةِ عنها، وخصوصًا إنْ ضُمَّ إلى ذلكَ قيامُ الليلِ.

ومنها: أنَّ الصّيامَ لا بدَّ أن يَقَعَ فيهِ خللٌ ونقصٌ، وتكفيرُ الصِّيام للذُّنوبِ مشروط بالتَّحفُّظِ ممَّا يَنْبَغي التَّحَفُّظُ منهُ، وعامَّةُ صيامِ النَّاسِ لا يَجتَمِعُ في صَومِهِ التَّحفُّظُ كما يَنْبَغِي،

(١) أخرجه مسلم (١٠٢٨).

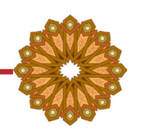


فالصّدقةُ تَجْبُرُ ما فيهِ من النَّقصِ والخللِ، ولهذا وَجَبَ في آخرِ شهرِ رمضانَ زكاةُ الفطرِ طهرةً للصَّائِمِ من اللغوِ والرَّفثِ.

ومنها: أنَّ الصَّائِمَ يَدَعُ طعامَهُ وشرابَهُ للهِ، فإذا أعانَ الصَّائمينَ على التَّقوِّي على طعامِهِم وشرابِهِم، كانَ بمنزلةِ مَن تَرَكَ شهوةً للهِ تعالَى، وآثَرَ بها أو واسى فيها. ولهذا يُشْرَعُ لهُ تفطيرُ الصُّوَّامِ معهُ إذا أفْطَرَ؛ لأنَّ الطَّعامَ يَكونُ محبوبًا لهُ حينئذٍ، فيواسي منهُ حتَّى يكونَ ممَّن أطْعَمَ الطعام على حبِّهِ، ويَكون في ذلكَ شكرٌ للهِ على نعمةِ إباحةِ الطَّعامِ والشَّرابِ لهُ وردِّهِ عليهِ بعدَ منعِهِ إيَّاهُ، فإنَّ هذهِ النِّعمةَ إنَّما عُرِفَ قدرُها عندَ المنعِ منها.

وسُئِلَ بعضُ السَّلفِ: لمَ شُرِعَ الصِّيام؟ قالَ: ليَذوقَ الغنيُّ طعمَ الجوعِ فلا يَنْسى الجائعَ. وهذا مِن بعضِ حكمِ الصَّومِ وفوائدِهِ.

كانَ كثيرٌ مِنَ السَّلفِ يواسونَ مِن إفطارِهِم أو يُؤْثرونَ بهِ



ويَطْوونَ، وكانَ ابنُ عُمَرَ يَصومُ ولا يُفْطِرُ إلا معَ المساكينِ، فإذا مَنَعَهُم أهلُهُ عنهُ، لم يَتَعَشَّ تلكَ الليلة.

وجاء سائلٌ إلى الإمام أحْمَدَ، فدَفَعَ إليهِ رغيفينِ كانَ يُعِدُّهُما لفطرِهِ، ثمَّ طَوى وأَصْبَحَ صائمًا.

وكانَ الحَسَنُ يُطْعِمُ إخوانَهُ وهوَ صائم صيام تطوُّع، ويَجْلِسُ يُرَوِّحُهُم[1] وهُم يأكُلونَ.

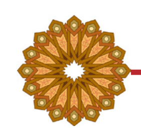
وكانَ ابنُ المُباركِ يُطْعِمُ إخوانَهُ الألوانَ مِن الحلواءِ وغيرِها في السَّفرِ وهوَ صائمٌ.

سلامُ اللهِ على تلكَ الأرواحِ، رحمةُ اللهِ على تلكَ الأشباحِ، لم يَبْقَ منهُم إلاّ أخبارٌ وآثار، كم بينَ مَن يَمْنَعُ الحقَّ الواجبَ عليهِ وبينَ أهلِ الإيثار.

لا تَعْرِضَنَّ لِذِكْرِنا في ذِكْرِهِمْ ... لَيْسَ الصَّحيحُ إذا مَشى كَالمُقْعَدِ

ودَلَّ الحديثُ أيضًا على استحبابِ دراسةِ القرآنِ في

(١) أي: أنَّه كان يحرك عليهم مروحة الهواء بيده، لينعموا بالهواء وهم يأكلون.



رمضانَ والاجتماعِ على ذلكَ وعرضِ القرآنِ على مَن هوَ أحفظُ لهُ منهُ.

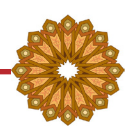
وفيهِ دليلٌ على استحبابِ الإكثارِ مِن تلاوةِ القرآنِ في شهرِ رمضانَ.

وفي حديثِ فاطِمَةَ: عن أبيها صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؛ أَنَّهُ أَخْبَرَها أنَّ جِبْريلَ كانَ يُعارِضُهُ القرآنَ كلَّ عامٍ مرَّةً، وأنَّه عارَضَهُ في عامِ وفاتِهِ مرَّتَينِ[1].

وفي حديث ابنِ عبَّاسٍ أنَّ المدارسةَ بينَهُ وبينَ جِبريلَ كانَتْ ليلاً. فدَلَّ على استحبابِ الإكثارِ مِن التِّلاوةِ في رمضانَ ليلاً؛ فإنَّ الليلَ تَنْقَطِعُ فيهِ الشَّواغِلُ، وتَجْتَمِعُ فيهِ الهِممُ، ويَتَواطَأُ فيهِ القلبُ واللسانُ على التَّدبُّرِ، كما قالَ تعالى: ﴿إِنَّ نَاشِئَةَ ٱلَّيۡلِ هِيَ أَشَدُّ وَطۡـٔٗا وَأَقۡوَمُ قِيلًا﴾ [المزَّمل:٦]. وشهرُ رمضانَ لهُ خصوصيَّةٌ بالقرآنِ، كما قالَ تَعالَى: ﴿شَهۡرُ رَمَضَانَ ٱلَّذِيٓ أُنزِلَ فِيهِ ٱلۡقُرۡءَانُ﴾ [البقرة:١٨٥].

---

(١) أخرجه البخاري (٣٦٢٤)، ومسلم (٢٤٥٠).



وقد كانَ النَّبيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يُطيلُ القراءةَ في قيامِ رمضانَ بالليلِ أكثرَ مِن غيرِه. وقد صَلَّى معَهُ حُذَيْفَةُ ليلةً في رمضانَ، فقرأ بالبقرةِ ثمَّ بالنِّساءِ ثمَّ بآلِ عِمْرانَ، لا يَمُرُّ بآيةِ تخويفٍ إلاَّ وَقَفَ وسَألَ[1].

وَكانَ عُمَرُ قد أمَرَ أُبَيَّ بنَ كَعْبٍ وَتَميمًا الدَّارِيَّ أنْ يَقوما بالنَّاسِ في شهرِ رمضانَ، فكانَ القارئُ يقرأ بالمئين في ركعةٍ[2]، حتَّى كانوا يَعْتَمدونَ على العِصِيِّ مِن طولِ القيامِ، وما كانوا يَنْصَرِفونَ إلاَّ عندَ الفجرِ.

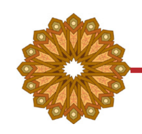
ورُوِيَ أنَّ عُمَرَ جَمَعَ ثلاثَةَ قرَّاءٍ: فأمَرَ أسْرَعَهُم قراءةً أنْ يَقْرأ بالنَّاسِ ثلاثينَ، وأوسطَهُم بخمسٍ وعشرينَ، وأبطأَهُم بعشرينَ.

ثمَّ كانَ في زمانِ التَّابعينَ يَقْرَؤونَ بالبقرةِ في قيامِ رمضانَ

---

(١) أخرجه مسلم (٧٧٢).

(٢) بالمئين: أي السور التي يقترب عدد آياتها من مئة آية أو يزيد، فإن سور القرآن تُقسَّم إلى أقسام: الطوال والمئين والمثاني والمُفَصَّل.



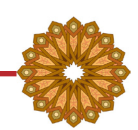
في ثمانِ ركعاتٍ، فإنْ قَرَأ بها في اثنتي عشرةَ ركعةً؛ رَأَوا أنَّهُ قد خَفَّفَ.

قالَ ابنُ مَنْصورٍ: سُئِلَ إسْحاقُ (يَعْني: ابنَ راهَوَيْهِ): كم يُقرَأُ في قيامِ شهرِ رمضانَ؟ فلم يُرَخِّصْ في دونِ عشرِ آياتٍ من البقرةِ. فقيلَ لهُ: إنَّهُم لا يَرْضَوْنَ. فقالَ: لا رَضُوا، فلا تَؤُمَّهُم إذا لم يَرْضَوا بعشرِ آياتٍ مِن البقرةِ، ثمَّ إذا صِرْتَ إلى الآياتِ الخفافِ فبقدرِ عشرِ آياتٍ مِن البقرةِ؛ يَعنِي: في كلِّ ركعةٍ.

وكذلكَ كَرِهَ مالكٌ أن يُقرأ دونَ عشرِ آياتٍ.

وسُئِلَ الإمامُ أحْمَدُ عمَّا رُوِيَ عن عُمَرَ كما تَقَدَّمَ ذكرُهُ في السَّريعِ القراءةِ والبطيءِ. فقالَ: في هذا مشقَّةٌ على النَّاسِ، ولا سيَّما في هذِهِ الليالي القصارِ، وإنَّما الأمرُ على ما يَحْتَمِلُهُ النَّاسُ.

وقالَ أحْمَدُ لبعضِ أصحابِهِ - وكانَ يُصَلِّي بِهِم في رمضانَ -: هؤلاءِ قومٌ ضعفاءُ، اقْرأْ بِهِم خمسًا ستًا سبعًا. قالَ: فقَرَأْتُ



فَخَتَمْتُ ليلةَ سبعٍ وعشرينَ.

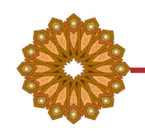
وقد رُوِيَ عن الحَسَنِ: أنَّ الذي أمَرَهُ عُمَرُ أنْ يُصَلِّيَ بالنَّاسِ كانَ يَقرأُ خمسَ آياتٍ ستَّ آياتٍ.

وكلامُ الإمام أحْمَدَ يَدُلُّ على أنَّهُ يُراعى في القراءةِ حالُ المأمومينَ، فلا يُشَقُّ عليهِم. وقالَهُ أيضًا غيرُهُ مِن الفقهاءِ مِن أصحابِ أبي حنيفَةَ وغيرِهِم.

وقد رُوِيَ عن أبي ذَرٍّ: أنَّ النَّبيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قامَ بهِم ليلةَ ثلاثٍ وعشرينَ إلى ثلثِ الليلِ، وليلةَ خمسٍ وعشرينَ إلى نصفِ الليلِ. فقالوا لهُ: لو نَفَّلْتَنا بقيَّةَ ليلتِنا؟ فقالَ: «إنَّ الرَّجُلَ إذا صَلَّى معَ الإمامِ حتَّى يَنْصَرِفَ، كُتِبَ لهُ بقيَّةُ ليلتِهِ». خَرَّجَهُ أهلُ السُّنَنِ، وحَسَّنَهُ التِّرمِذِيُّ(١).

وهذا يَدُلُّ على أنَّ قيامَ ثلثِ الليلِ ونصفِ الليلِ يُكْتَبُ بهِ

(١) أخرجه أبو داود (١٣٧٥)، والترمذي (٨٠٦)، والنسائي (١٣٦٤)، وابن ماجه (١٣٢٧)، قال الشيخ الألباني في صحيح سنن أبي داود (٥/ ١٢٠): إسناده صحيح.



قيامُ ليلةٍ، لكنْ معَ الإمامِ.

وكانَ الإمامُ أحْمَدُ يَأخُذُ بهذا الحديثِ، ويُصَلِّي معَ الإمامِ حتَّى يَنْصَرِفَ، ولا يَنْصَرِفُ حتَّى يَنْصَرِفَ الإمامُ.

وقالَ بعضُ السَّلفِ: مَن قامَ نصفَ الليلِ فقد قامَ الليلَ.

وفي «سنن أبي داود»: عن عَبْدِ اللهِ بنِ عَمْرٍو، عنِ النَّبيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؛ قالَ: «مَن قامَ بعَشْرِ آياتٍ؛ لمْ يُكْتَبْ مِن الغافلينَ، ومَن قامَ بمئةِ آيةٍ؛ كُتِبَ مِن القانتينَ، ومَن قامَ بألفِ آيةٍ كُتِبَ مِن المقنطرينَ»[(١)]؛ يَعْني: أنَّه يُكتب لهُ قنطارٌ مِن الأجرِ.

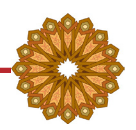
وَمَن أرادَ أن يُطيلَ في القراءةِ ويَزيدَ وكانَ يُصلِّي لنفسِهِ، فلْيُطَوِّلْ ما شاءَ، كما قالهُ النَّبيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ[(٢)]. وكذلكَ مَن صَلَّى بجماعةٍ يَرْضَونَ بصلاتِهِ.

وكانَ بعضُ السَّلفِ يَخْتِمُ في قيامِ رمضانَ في كلِّ ثلاثِ

---

(١) أخرجه أبو داود بإسناد حسن.

(٢) يشير إلى حديث أخرجه البخاري (٧٠٣)، ومسلم (٤٦٧).



ليال. وبعضُهُم في كلِّ سبعٍ، منهُم قتادَةُ. وبعضُهُم في كلِّ عشرٍ، منهُم أبو رَجاء العُطارِدِيُّ.

۞ وكانَ السَّلفُ يَتْلونَ القرآنَ في شهرِ رمضانَ في الصَّلاةِ وغيرِها:

كانَ الأسودُ يَقْرأُ القرآنَ في كلِّ ليلتينِ في رمضانَ.

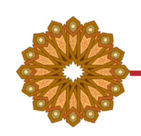
وكانَ النَّخَعِيُّ يَفْعَلُ ذلكَ في العشرِ الأواخرِ منهُ خاصَّةً، وفي بقيَّةِ الشَّهرِ في كلِّ ثلاثٍ.

وكانَ قَتادَةُ يَخْتِمُ في كلِّ سبعٍ دائمًا، وفي رمضانَ في كلِّ ثلاثٍ، وفي العشرِ الأواخرِ كلّ ليلةٍ.

وكانَ للشَّافِعِيِّ في رمضانَ ستُّونَ ختمةً يَقْرَؤُها في غيرِ الصَّلاةِ.

وعن أبي حَنيفَةَ نحوُهُ.

وكانَ الزُّهْرِيُّ إذا دَخَلَ رمضانُ قالَ: إنَّما هوَ تلاوةُ القرآنِ وإطعامُ الطَّعامِ.



قالَ ابنُ عَبْدِ الحكمِ: كانَ مالِكٌ إذا دَخَلَ رمضانُ؛ نَفَرَ مِن قراءةِ الحديثِ ومجالسةِ أهلِ العلمِ، وأقْبَلَ على تلاوةِ القرآنِ مِن المصحفِ.

وقالَ عَبْدُ الرَّزَّاقِ: كانَ سُفْيانُ الثَّوريُّ إذا دَخَلَ رمضانُ؛ تَرَكَ جميعَ العبادةِ وأقْبَلَ على تلاوةِ القرآنِ.

وكانَتْ عائِشَةُ تَقْرَأُ في المصحفِ أوَّلَ النَّهارِ في شهرِ رمضانَ، فإذا طَلَعَتِ الشَّمسُ؛ نامَتْ.

وقالَ سُفْيانُ: كانَ زُبَيْدٌ اليامِيُّ إذا حَضَرَ رمضانُ؛ أحْضَرَ المصاحفَ وجَمَعَ إليهِ أصحابَهُ.

وإنَّما وَرَدَ النَّهيُ عن قراءةِ القرآنِ في أقلَّ مِن ثلاثٍ على المداومةِ على ذلكَ.

فأمَّا في الأوقاتِ المفضَّلةِ - كشهرِ رمضانَ خصوصًا الليالِيَ التي يُطلَبُ فيها ليلةُ القدرِ - أو في الأماكنِ المفضَّلةِ - كمكَّةَ لمَن دَخَلَها مِن غيرِ أهلِها، فيُسْتَحَبُّ الإكثارُ فيها

مِن تلاوةِ القرآنِ، اغتنامًا للزَّمانِ والمكانِ. وهذا قولُ أحْمَدَ وإسْحاقَ وغيرِهِما مِن الأئمَّةِ، وعليهِ يَدُلُّ عملُ غيرِهِم، كما سَبَقَ ذكرُهُ.

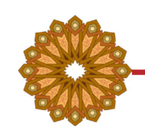
واعْلَمْ أنَّ المؤمنَ يَجْتَمِعُ لهُ في شهرِ رمضانَ جهادانِ لنفسِهِ:

* جهادٌ بالنَّهارِ على الصِّيام.
* وجهادٌ بالليلِ على القيامِ.

فمَن جَمَعَ بينَ هذينِ الجهادينِ ووفَّى بحقوقِهما وصَبَرَ عليهِما، وُفِّيَ أجرَهُ بغيرِ حسابٍ.

ويَشْفَعانِ لهُ أيضًا عندَ اللهِ عَزَّوَجَلَّ كما في «المسند»: عن عبْدِ اللهِ بنِ عَمْرٍو، عنِ النَّبيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؛ قالَ: «الصِّيامُ والقرآنُ يَشْفَعانِ للعبدِ يومَ القيامة، يَقولُ الصِّيامُ: أيْ ربِّ! مَنَعْتُهُ الطَّعامَ والشَّهواتِ بالنَّهارِ فشَفِّعْني فيهِ. ويَقولُ القرآنُ: مَنَعْتُهُ النَّومَ بالليلِ فشَفِّعْني فيهِ. فيُشَفَّعانِ»[1].

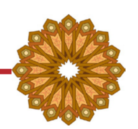
(١) أخرجه أحمد (٦٦٢٦)، والحاكم (١/ ٧٤٠)، وقال: حديث صحيح على شرط مسلم.



فالصِّيامُ يَشْفَعُ لمَن مَنَعَهُ الطَّعامَ والشَّهواتِ المحرَّمةَ كلَّها، سواءٌ كانَ تحريمُها يَخْتَصُّ بالصِّيامِ ـ كشهوةِ الطَّعامِ والشَّرابِ والنِّكاحِ ومقدِّماتِها – أو لا يَخْتَصُّ بِهِ – كشهوةِ فضولِ الكلامِ المحرَّمِ والنَّظرِ المحرَّمِ والسَّماعِ المحرَّمِ والكسبِ المحرَّمِ، فإذا مَنَعَهُ الصِّيامُ مِن هذهِ المحرَّماتِ كلِّها؛ فإنَّهُ يَشْفَعُ لهُ عندَ اللهِ يومَ القيامةِ فيَقولُ: يا ربِّ! مَنَعْتُهُ شهواتِهِ فشَفِّعْني فيهِ.

وكذلكَ القرآنُ إنَّما يَشْفَعُ لمَن مَنَعَهُ مِن النَّومِ بالليلِ، فإنَّ مَن قَرَأ القرآنَ وقامَ بِهِ، فقد قامَ بحقِّهِ، فيَشْفَعُ لهُ.

قالَ ابنُ مَسْعودٍ: يَنبَغِي لقارئ القرآنِ أنْ يُعرَفَ: بليلِهِ إذا النَّاسُ يَنامونَ، وبنهارِهِ إذا النَّاسُ يُفْطِرونَ، وببكائِهِ إذا النَّاسُ يَضْحَكونَ، وبورعِهِ إذا النَّاسُ يُخَلِّطونَ، وبصمتِهِ إذا النَّاسُ يَخوضونَ، وبخشوعِهِ إذا النَّاسُ يَخْتالونَ، وبحزنِهِ إذا النَّاسُ يَفْرَحونَ.



قالَ وُهَيْبُ بنُ الوَرْدِ: قيلَ لرجلٍ: ألا تَنامُ؟ قالَ: إنَّ عجائبَ القرآنِ أطَرْنَ نومي.

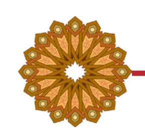
وصَحِبَ رجلٌ رجلاً شهرينِ، فلم يَرَهُ نائمًا، فقالَ: ما لي لا أراكَ نائمًا؟ قالَ: إنَّ عجائبَ القرآنِ أطَرْنَ نومي، ما أخْرُجُ مِن أُعجوبةٍ إلاَّ وَقَعْتُ في أُخرى.

قالَ أحْمَدُ بنُ أبي الحَواري: إنِّي لأقْرأُ القرآنَ وأنْظُرُ فيه آيةً آية، فيَحيرُ عقلي بها، وأعْجَبُ مِن حفَّاظِ القرآنِ كيفَ يَهْنيهِمُ النَّومُ ويَسَعُهُم أنْ يَشْتَغِلوا بشيءٍ مِن الدُّنيا وهُم يَتلونَ كلامَ اللهِ! أما إنَّهم لو فَهِموا ما يَتْلونَ وعَرَفوا حقَّهُ وتَلذَّذوا بِهِ واسْتحْلَوْا المناجاةَ بهِ؛ لذَهبَ عنهُم النَّومُ فرحًا بما قد رُزقوا.

وأنْشَدَ ذو النُّونِ:

مَنَعَ القُرَانُ بِوَعْدِهِ وَوَعيدِهِ ... مُقَلَ العُيونِ بِلَيْلِها لا تَهْجَعُ

فَهِمُوا عَنِ المَلِكِ الجَليلِ كَلامَهُ ... فَهْمًا تَذِلُّ لَهُ الرِّقابُ وَتَخْضَعُ



فأمَّا مَن كانَ معَهُ القرآنُ فنامَ عنهُ بالليلِ ولمْ يَعْمَلْ بهِ بالنَّهارِ؛ فإنَّهُ يَنْتَصِبُ القرآنُ خصمًا لهُ، يُطالِبُهُ بحقوقِهِ التي ضَيَّعَها.

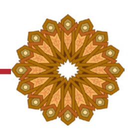
وخَرَّجَ الإمامُ أحْمَد مِن حديثِ سَمرةَ؛ أنَّ النَّبيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ رَأى في منامِهِ رجلاً مستلقيًا على قفاهُ ورجلٌ قائمٌ بيدِهِ فهرٌ[١] أو صخرةٌ فيَشْدَخُ بهِ رَأسَهُ فيَتَدَهْدَه الحجرُ، فإذا ذَهَبَ لِيَأْخُذَهُ، عادَ رَأسُهُ كما كانَ، فصَنَعَ بهِ مثلَ ذلكَ، فسَألَ النبي عنهُ، فقيلَ لهُ: هذا رجلٌ آتاهُ اللهُ القرآنَ فنامَ عنهُ بالليلِ ولمْ يَعْمَلْ بهِ بالنَّهارِ، فهوَ يَفْعَلُ بهِ ذلكَ إلى يومِ القيامةِ. وقد خَرَّجَهُ البخاري بغيرِ هذا اللفظ[٢].

يا مَن ضَيَّعَ عُمرَهُ في غيرِ الطَّاعَةِ! يا مَن فَرَّطَ في شهرِهِ بل في دهرِهِ وأضاعَه! يا مَن بضاعتُهُ التَّسويفُ والتَّفريطُ وبئستِ البضاعة! يا مَن جَعَلَ خصمَهُ القرآنَ وشهرَ رمضانَ كيفَ تَرْجو ممَّن جَعَلْتَهُ خصمَكَ الشَّفاعة؟!

---

(١) الفِهر: الحجر.

(٢) أخرجه أحمد (٢٠١٦٥)، وأخرجه البخاري (١٣٨٦).



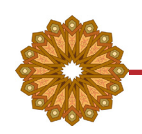
وَيْلٌ لِمَنْ شُـفعاؤُهُ خُصَماؤُهُ وَالصُّوْرُ فِي يَوْمِ القيامَةِ يُنْفَخُ

ربَّ صائم حظُّهُ مِن صيامِهِ الجوعُ والعطشُ وقائمٍ حظُّهُ مِن قيامِهِ السَّهَرُ.

كلُّ قيام لا يَنْهى عنِ الفحشاءِ والمنكرِ لا يَزيدُ صاحبَهُ إلاَّ بُعدًا، وكلُّ صيامٍ لا يُصانُ عن قولِ الزُّورِ والعملِ بهِ لا يُورِثُ صاحبَهُ إلاَّ مقتًا وردًّا.

يا قومِ! أينَ آثارُ الصِّيامِ! أينَ أنوارُ القيامِ؟!

هذَا – عبادَ اللهِ – شهرُ رمضانَ الذي أُنْزِلَ فيهِ القرآنُ وفي بقيَّتِهِ للعابدينَ مستمتَع، وهذا كتابُ اللهِ يُتْلى فيهِ بينَ أظهرِكُم ويُسْتَمع، وهوَ القرآنُ الذي لو أُنْزِلَ على جبلٍ لرأيْتَهُ خاشعًا يَتَصَدَّع، ومَعَ هذا فلا قلبٌ يَخْشَعُ ولا عينٌ تَدْمَعُ ولا صيامٌ يُصانُ عنِ الحرامِ فيَنْفَعُ ولا قيامٌ اسْتَقامَ فيُرْجى في صاحبِهِ أنْ يَشْفَع! قلوبٌ خَلَتْ مِن التَّقوى فهيَ خرابٌ بَلْقَع، وتَراكَمَتْ عليها ظلمةُ الذّنوبِ فهيَ لا تُبْصِرُ ولا تَسْمَع.



كَمْ تُتْلى علينا آياتُ القرآنِ وقلوبُنا كالحجارةِ أو أشدُّ قسوة! وكم يتَوالى علينا شهرُ رمضانَ وحالُنا فيهِ كحالِ أهلِ الشِّقوةِ؛ لا الشَّابُّ منَّا يَنْتَهي عنِ الصَّبوة ولا الشَّيْخُ يَنْزَجِرُ عنِ القبيحِ فيَلْتَحِقُ بالصَّفوة.

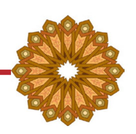
أينَ نحنُ من قوم إذا سَمِعوا داعيَ اللهِ أجابوا الدَّعوة، وإذا تُلِيَتْ عليهِم آياتُ اللهِ جَلَتْ قلوبَهُم جَلْوَة، وإذا صاموا صامَتْ منهُمُ الألسنةُ والأسماعُ والأبصارُ؟ أفما لنا فيهِم أُسوة؟ كم بينَنا وبينَ حالِ أهلِ الصَّفا! أبعدُ ممَّا بيننا وبينَ الصَّفا والمروة.

كلَّما حَسُنَتْ منَّا الأقوالُ ساءَتِ الأعمالُ! فلا حولَ ولا قوَّةَ إلا باللهِ العليِّ العظيم.

يا نَفْسُ فازَ الصَّالِحونَ بِالتُّقى ... وَأبْصَروا الحَقَّ وَقَلْبي قَدْ عَمِي

يا حُسْنَهُمْ وَاللَّيْلُ قَدْ جَنَّهُمُ ... وَنورُهُمْ يَفوقُ نورَ الأَنْجُمِ

تَرَنَّموا بِالذِّكْرِ في لَيْلِهِمُ ... فَعَيْشُهُمْ قَدْ طابَ بِالتَّرَنُّمِ

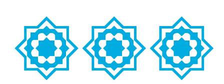


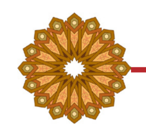
قُلوبُهُـمْ لِلذِّكْـرِ قَـدْ تَفَرَّغَتْ   دُمـوعُـهُـمْ كَـلُـؤلُـؤٍ مُنْتَظِمِ

أَسْحارُهُمْ بِهِمْ لَهُمْ قدْ أشْرَقَتْ   وَخِلَعُ الغُفْرانِ خَيْرُ القِسَمِ

وَيْحَـكِ يـا نَفْـسُ ألا تَيَقُّـظٌ   يَنْفَعُ قَبْـلَ أنْ تَـزِلَّ قَدَمي

مَضـى الزَّمانُ في تَوانٍ وَهَوًى   فَاسْتَدرِكي ما قَدْ بَقِي وَاغْتَنِمي



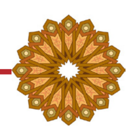


المجلس الثالث

في ذِكر العشر الأوسط من شهر رمضان وذِكر نصف الشهر الأخير

في الصَّحيحين: عن أبي سَعيدٍ الخُدْرِيِّ؛ قالَ: «كانَ رسولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَعْتَكِفُ في العشرِ الأوسطِ مِن رمضانَ، فاعْتَكَفَ عامًا، حتَّى إذا كانَتْ ليلةُ إحدى وعشرينَ، وهيَ الليلةُ التي يَخْرُجُ في صبيحتِها مِنِ اعتِكافِهِ، قالَ: «مَن كانَ اعْتَكَفَ معي؛ فلْيَعْتَكِفِ العشرَ الأواخرَ، وقد أُريتُ هذهِ الليلةَ ثمَّ أُنْسِيتُها، وقد رَأَيْتُني أَسْجُدُ في ماءٍ وطينٍ مِن صبيحتِها، فالتَمِسوها في العشرِ الأواخرِ، والتمسوها في كلِّ وترٍ». فمَطَرَتِ السَّماءُ تلكَ الليلةَ، وكانَ المسجدُ على عريشٍ، فوَكَفَ المسجدُ، فبَصُرَتْ عينايَ رسولَ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وعلى جبهتِهِ أثرُ الماءِ والطِّينِ مِن صبحِ إحدى وعشرينَ»[1].

(١) أخرجه البخاري (٢٠١٨)، ومسلم (١١٦٧).

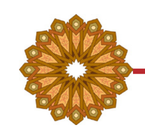


هذا الحديثُ يَدُلُّ على أنَّ النَّبيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كانَ يَعْتَكِفُ العشرَ الأوسطَ مِن شهرِ رمضانَ؛ لابتغاءِ ليلةِ القدرِ فيهِ. وهذا السِّياقُ يَقْتَضي أنَّ ذلك تَكَرَّرَ منهُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

وفي روايةٍ في الصَّحيحينِ في هذا الحديثِ: أنَّهُ اعْتَكَفَ العشرَ الأوَّلَ، ثمَّ اعتكَفَ العشرَ الأوسطَ، ثمَّ قالَ: «إنِّي أُتِيتُ، فقيلَ لي: إنَّها في العشرِ الأواخرِ، فمَن أحَبَّ منكُم أنْ يَعْتَكِفَ، فلْيَعْتَكِفْ». فاعْتَكَفَ النَّاسُ معَهُ.

وهذا يَدُلُّ على أنَّ ذلكَ كانَ منهُ قبلَ أنْ يَتَبَيَّنَ لهُ أنَّها في العشرِ الأواخرِ، ثمَّ لمَّا تبيَّنَ لهُ ذلكَ؛ اعتكَفَ العشرَ الأواخرَ حتَّى قَبَضَهُ اللهُ عَزَّوَجَلَّ. كما رواهُ عنهُ عائشَةُ وأبو هُرَيْرَةَ وغيرهُما.

وقد وَرَدَ الأمرُ بطلبِ ليلةِ القدرِ في النِّصفِ الأواخرِ مِن رمضانَ، وفي أفرادِ ما بَقِيَ مِن العشرِ الأوسطِ مِن هذا النِّصفِ، وهُما ليلتانِ: ليلةُ سبعَ عشرةَ، وليلةُ تسعَ عشرةَ.

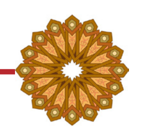


ولهذا المعنى - واللهُ أعلمُ - كانَ أُبَيُّ بنُ كَعْبٍ يَقْنُتُ في الوترِ في ليالي النِّصفِ الأواخرِ؛ لأَنَّهُ يُرْجى فيهِ ليلةُ القدرِ.

وأيضًا؛ فكلُّ زمانٍ فاضلٍ مِن ليلٍ أو نهارٍ؛ فإنَّ آخرَهُ أفضلُ مِن أوَّلِهِ، كيومِ عرفةَ ويومِ الجمعةِ. وكذلكَ الليلُ والنَّهارُ عمومًا آخرُهُ أفضلُ مِن أوَّلِه. ولذلكَ كانَتِ الصَّلاة الوسطى صلاةَ العصرِ، كما دَلَّتِ الأحاديثُ الصَّحيحةُ عليهِ، وآثارُ السَّلفِ الكثيرةُ تَدُلُّ عليهِ. وكذلكَ عشرُ ذي الحجَّةِ والمحرَّمِ؛ آخرُهُما أفضلُ مِن أوَّلِهما.

وقد قيلَ: إنَّ ابتداءَ نبوَّةِ النَّبيِّ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كانَ في سابعَ عشرةَ رمضانَ.

قالَ أبو جَعْفَرٍ مُحَمَّدُ بنُ عَلِيٍّ الباقِرُ: نَزَلَ جِبْريلُ على رسولِ اللهِ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ليلةَ السَّبتِ وليلةَ الأحدِ، ثمَّ ظَهَرَ لهُ بحِراءَ برسالةِ اللهِ عَزَّوَجَلَّ يومَ الاثنينِ لسبعَ عشرةَ خلَتْ مِن رمضانَ.

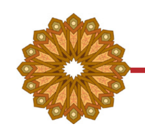


وأصَحُّ ما رُوِيَ مِن الحوادِثِ في هذهِ الليلة أَنَّها ليلةُ بدرٍ ليلةَ سبعَ عشرةَ. وقيلَ: تسعَ عشرةَ. والمشهورُ أَنَّها كانَتْ ليلةَ سبعَ عشرةَ وصبيحتُها هوَ يومُ الفرقانِ، يومَ التقى الجمعانِ.

وسُمِّيَ يومَ الفرقانِ؛ لأنَّ الله تعالى فَرَقَ فيهِ بينَ الحقِّ والباطلِ، وأظْهَرَ الحقَّ وأهلَهُ على الباطلِ وحزبِهِ، وعَلَتْ كلمةُ اللهِ وتوحيدُهُ، وذَلَّ أعداؤُهُ مِن المشركينَ وأهلِ الكتابِ.

وكانَ سببُ خروجِه حاجَةَ أصحابِهِ، خصوصًا المهاجرينَ ﴿لِلْفُقَرَآءِ ٱلْمُهَـٰجِرِينَ ٱلَّذِينَ أُخْرِجُوا۟ مِن دِيَـٰرِهِمْ وَأَمْوَٰلِهِمْ يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنًا وَيَنصُرُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ ۚ أُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلصَّـٰدِقُونَ ﴿٨﴾﴾ [الحشر:٨].

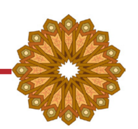
وكانَتْ هذهِ العيرُ فيها أموالٌ كثيرةٌ لأعدائِهِمُ الكفَّارِ الذينَ أخْرَجوهُم مِن ديارِهِم وأموالِهِم ظلمًا وعدوانًا، كما قالَ تعالَى: ﴿أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَـٰتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا۟ ۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ ﴿٣٩﴾ ٱلَّذِينَ أُخْرِجُوا۟ مِن دِيَـٰرِهِم بِغَيْرِ حَقٍّ إِلَّآ أَن يَقُولُوا۟ رَبُّنَا ٱللَّهُ﴾ [الحج:٣٩-٤٠]. **فَقَصَدَ النَّبِيُّ** صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أنْ



يأْخُذَ أموالَ هؤلاءِ الكفَّارِ الظَّالمينَ المعتدينَ على أولياءِ اللهِ وحزبِهِ وجندِهِ، فيَرُدَّها على أولياءِ اللهِ وحزبِهِ المظلومينَ المخرَجينَ مِن ديارِهِم وأموالِهِم لِيَتَقَوَّوا بها على عبادةِ اللهِ وطاعتِهِ وجهادِ أعدائِهِ. وهذا ممَّا أحَلَّهُ اللهُ لهذِهِ الأمَّةِ؛ فإنَّهُ أحَلَّ لهُمُ الغنائمَ، ولم تَحِلَّ لأحدٍ قبلَهُم.

وكانَ عدَّةُ مَن معهُ ثلاثَ مئةٍ وبضعةَ عشرَ، وكانوا على عدَّةِ أصحابِ طالوتَ الذينَ جازوا معَهُ النَّهرَ، وما جازَهُ معَهُ إلاَّ مؤمنٌ.

وكانَ أصحابُ النَّبيِّ ﷺ حينَ خَرَجوا على غايةٍ مِن قلَّةِ الظَّهرِ والزَّادِ؛ فإنَّهُم لم يَخْرُجوا مستعدِّينَ لحربٍ ولا لقتالٍ، وإنَّما خَرَجوا لطلبِ العيرِ، وكانَ معهُم نحوُ سبعينَ بعيرًا يَعْتَقِبونَها بينَهُم، كلُّ ثلاثةٍ على بعيرٍ، وكانَ للنَّبيِّ ﷺ زميلانِ، وكانوا يَعْتَقِبونَ على بعيرٍ واحدٍ، فكانَ زميلاهُ يقولانِ لهُ: يا رسولَ اللهِ! ارْكَبْ حتَّى نَمْشِيَ عنكَ، فيَقولُ: «ما أنتُما بأقوى على المشي منِّي ولا أنا بأغنى عنِ

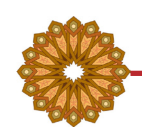


الأجرِ منكُما»[1]. ولم يَكُنْ معَهُم إلا فرَسانِ، وقيلَ ثلاثةٌ، وقيلَ فرسٌ واحدٌ للمِقْدادِ.

وبَلَغَ المشركينَ خروجُ النَّبيِّ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لطلبِ العيرِ، فأخَذَ أبو سُفيانَ بالعيرِ نحوَ السَّاحلِ، وبَعَثَ إلى أهلِ مَكَّةَ يُخْبِرُهُمُ الخبرَ ويَطْلُبُ منهُم أنْ يَنْفِروا لحمايةِ عيرِهِم، فخَرَجوا مستصرخينَ، وخَرَجَ أشرافُهُم ورؤساؤُهُم وساروا نحوَ بدرٍ.

واستشارَ النَّبيُّ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ المسلمينَ في القتالِ، فتكَلَّمَ المهاجرونَ فسَكَتَ عنهُم، وإنَّما كانَ قصدُهُ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الأنصارَ؛ لأَنَّهُ ظَنَّ أنَّهُم لمْ يُبايِعوهُ إلاَّ على نصرتِهِ على مَن قَصَدَهُ في ديارِهِم، فقامَ سَعْدُ بنُ عُبادَةَ فقالَ: إيَّانَا تُريدُ (يعْني: الأنصارَ)؟ والذي نفسِي بيدِهِ؛ لو أمَرْتَنا أنْ نُخيضَها البحرَ؛ لأخضْناها، ولو أمَرْتَنا أنْ نَضْرِبَ أكبادَها إلى بَرْكِ الغِمادِ؛

(١) أخرجه النسائي (٨٧٥٦)، والحاكم (١٠٠/ ٢)، قال الحاكم: هذا حديث صحيح الإسناد.



لفَعَلْنا[1]. وقالَ لهُ المِقْدادُ: لا نَقولُ لكَ كما قالَ بنو إسرائيلَ لموسى: ﴿قَالُواْ يَٰمُوسَىٰٓ إِنَّا لَن نَّدۡخُلَهَآ أَبَدٗا مَّا دَامُواْ فِيهَا فَٱذۡهَبۡ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَٰتِلَآ إِنَّا هَٰهُنَا قَٰعِدُونَ﴾ [المائدة: ٢٤] ولكنْ نُقاتِلُ معكَ عن يَمينِكَ وشمالِكَ وبينَ يديكَ ومِن خلفِكَ. فسُرَّ النَّبيُّ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بذلكَ وأجْمَعَ على القتالِ وباتَ تلكَ الليلةَ ليلةَ الجمعةِ سابعَ عشرَ رمضانَ قائمًا يُصَلِّي ويَبْكي ويَدْعو اللهَ ويَسْتَنْصِرُهُ على أعدائِهِ.

وفي «المسند»: عن عَلِيِّ بنِ أبي طالِبٍ؛ قالَ: لقد رَأيتُنا وما فينا إلاَّ نائمٌ؛ إلاَّ رسولَ اللهِ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ تحتَ شجرةٍ يُصَلِّي ويَبْكي حتَّى أصْبَحَ[2].

وأمَدَّ اللهُ تَعالى نبيَّهُ والمؤمنينَ بنصرٍ مِن عندِهِ وبجندٍ مِن جندِهِ، كما قالَ تعالى: ﴿إِذۡ تَسۡتَغِيثُونَ رَبَّكُمۡ فَٱسۡتَجَابَ لَكُمۡ أَنِّي مُمِدُّكُم بِأَلۡفٖ مِّنَ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةِ مُرۡدِفِينَ ۝٩ وَمَا جَعَلَهُ

(١) أخرجه مسلم (١٧٧٩).
(٢) أخرجه أحمد (١٠٢٢)، وصحَّحه ابن خزيمة وابن حبان.

ﵟٱللَّهُ إِلَّا بُشۡرَىٰ وَلِتَطۡمَئِنَّ بِهِۦ قُلُوبُكُمۡۚ وَمَا ٱلنَّصۡرُ إِلَّا مِنۡ عِندِ ٱللَّهِﵞ [الأنفال:٩ – ١٠].

وفي «صحيح البُخاريِّ» أنَّ جِبْريلَ قالَ للنَّبيِّ ﷺ: ما تَعُدُّونَ أهلَ بدرٍ فيكُم؟ قالَ: «مِن أفضلِ المسلمينَ (أو كلمةً نحوَها). قالَ: وكذلكَ مَن شَهِدَ بدرًا مِن الملائكةِ»(١).

وقالَ اللهُ تعالى: ﵟوَلَقَدۡ نَصَرَكُمُ ٱللَّهُ بِبَدۡرٖ وَأَنتُمۡ أَذِلَّةٞﵞ [آل عمران:١٢٣].

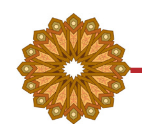
وقالَ: ﵟفَلَمۡ تَقۡتُلُوهُمۡ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ قَتَلَهُمۡۚ وَمَا رَمَيۡتَ إِذۡ رَمَيۡتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ رَمَىٰﵞ [الأنفال:١٧].

ولمَّا قدِمَ الخبرُ على أهلِ مكَّةَ؛ قالوا لمَن أتاهُم بالخبرِ: كيفَ حالُ النَّاسِ؟ قالَ: لا شيءَ! واللهِ؛ إنْ كانَ إلاَّ أنْ لَقِيْناهُم فمَنَحْناهُم أكتافَنا يَقْتُلونَنا ويَأسِرونَنا كيفَ شاؤوا، لَقينا رجالاً على خيلٍ بلقٍ بينَ السَّماءِ والأرضِ ما يَقومُ لها شيءٌ.

وقَتَلَ اللهُ صناديدَ كفَّارِ قريشٍ يومئذٍ، منهُم عُتْبَةُ بنُ ربيعةَ

---

(١) أخرجه البخاري (٣٩٩٤).

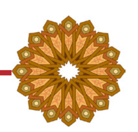


وشَيْبَةُ والوَليدُ بنُ عُتْبَةَ وأبو جَهْلٍ وغيرُهُم، وأَسَروا منهُم سبعينَ.

وقصَّةُ بدرٍ يَطولُ استقصاؤُها، وهيَ مشهورةٌ في التَّفسيرِ وكتبِ الصِّحاحِ والسُّننِ والمسانيدِ والمغازي والتَّواريخِ وغيرِها. وإنَّما المقصودُ هاهُنا التَّنبيهُ على بعضِ مقاصِدِها.

وقَدْ أخبَرَ اللهُ عن ذلكَ بقولِهِ تَعالَى: ﴿ وَإِذْ زَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَعْمَٰلَهُمْ وَقَالَ لَا غَالِبَ لَكُمُ ٱلْيَوْمَ مِنَ ٱلنَّاسِ وَإِنِّي جَارٌ لَّكُمْ ۖ فَلَمَّا تَرَآءَتِ ٱلْفِئَتَانِ نَكَصَ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ وَقَالَ إِنِّي بَرِيٓءٌ مِّنكُمْ إِنِّيٓ أَرَىٰ مَا لَا تَرَوْنَ إِنِّيٓ أَخَافُ ٱللَّهَ ۚ وَٱللَّهُ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴾ [الأنفال:٤٨].

فإبليسُ عدوُّ اللهِ يَسْعَى جهدَهُ في إطفاءِ نورِ اللهِ وتوحيدِهِ، ويُغْرِي بذلكَ أولياءَهُ مِن الكفَّارِ والمنافقينَ. فلمَّا عَجَزَ عن ذلكَ بنصرِ اللهِ نبيَّهُ وإظهارِ دينِهِ على الدِّينِ كلِّهِ، رَضِيَ بإلقاءِ الفتنِ بينَ المسلمينَ واجتَزى منهُم بمحقّراتِ الذّنوبِ حيثُ عَجَزَ عن ردِّهِم عن دينِهِم، كما قالَ النَّبيُّ صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ:



«إنَّ الشَّيطانَ قد أيسَ أنْ يَعْبُدَهُ المصلُّونَ في جزيرةِ العربِ، ولكنْ في التَّحريشِ بينَهُم». خَرَّجَهُ مسلمٌ مِن حديثِ جابرٍ[(١)].

وَلم يَعْظُمْ على إبليسَ شيءٌ أكثرُ مِن بعثةِ مُحَمَّدٍ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وانتشارِ دعوتِهِ في مشارِقِ الأرضِ ومغاربِها، فإنَّهُ أيِسَ أنْ تَعودَ أُمَّتُهُ كُلُّهم إلى الشِّركِ الأكبرِ.

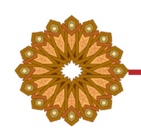
فهوَ لا يزالُ في همٍّ وغمٍّ وحزنٍ منذُ بُعِثَ النَّبيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، لِما رَأى منهُ ومِن أمَّتِهِ ما يُهِمُّهُ ويَغيظُهُ.

ولا يَزَالُ إِبْليسُ يَرى في مواسمِ المغفرةِ والعتقِ مِن النَّارِ ما يَسوؤُهُ؛ فيومَ عرفةَ لا يُرى أصغرَ ولا أحقرَ ولا أدحَرَ فيهِ منهُ لِما يَرى مِن تنزُّلِ الرَّحمةِ وتجاوزِ اللهِ عنِ الذُّنوبِ العظامِ؛ إلاَّ ما رُئِيَ يومَ بدرٍ.

وفي شهرِ رمضانَ يَلْطُفُ اللهُ بأُمَّةِ مُحَمَّدٍ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فيَغلُّ فيهِ الشَّياطينَ ومردةَ الجِنِّ حتَّى لا يَقْدِروا على ما كانوا

---

(١) أخرجه مسلم (٢٨١٢).



يَقْدِرونَ عليهِ في غيرِهِ مِن تسويلِ الذُّنوبِ، ولهذا تَقِلُّ المعاصي في شهرِ رمضانَ في الأُمَّةِ لذلكَ.

ففي الصَّحيحينِ: عن أبي هُرَيْرَةَ، عنِ النَّبيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؛ قالَ: «**إذا دَخَلَ رمضانُ؛ فتحَتْ أبوابُ السَّماءِ، وغُلِّقَتْ أبوابُ جَهَنَّمَ، وسُلْسِلَت الشَّياطينُ**»(١).

ولمسلمٍ: «**فُتِحَتْ أبوابُ الرَّحمةِ**».

ولهُ أيضًا: عن أبي هُرَيْرَةَ، عنِ النَّبيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؛ قالَ: «**إذا جاءَ رمضانُ؛ فُتِّحَتْ أبوابُ الجنَّةِ، وغُلِّقَتْ أبوابُ النَّارِ، وصُفِّدَتِ الشَّياطينُ**». وخَرَّجَ منهُ البُخاريُّ ذكرَ فتحِ أبوابِ الجنَّةِ.

وللتِّرمِذيِّ وابنِ ماجَهْ: عنهُ، عنِ النَّبيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؛ قالَ: «**إذا كانَ أوَّلُ ليلةٍ مِن شهرِ رمضانَ؛ صُفِّدتِ الشَّياطينُ ومردَةُ الجنِّ، وغُلِّقَتْ أبوابُ النَّارِ فلم يُفْتَحْ منها بابٌ،**

(١) أخرجه البخاري (١٨٩٩)، ومسلم (١٠٧٩).

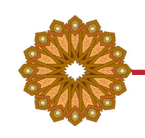
وفتِحَتْ أبوابُ الجنَّةِ فلمْ يُغْلَقْ منها بابٌ، ويُنادي منادٍ: يا باغيَ الخيرِ! أقْبِلْ، ويا باغيَ الشَّرِّ! أقْصِر. وللهِ عُتَقاءُ مِن النَّارِ، وذلكَ كلَّ ليلةٍ»[1].

وللإمامِ أحْمدَ: عن أبي هُرَيْرَةَ، عنِ النَّبيِّ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قالَ: «أُعطِيَتْ أمَّتي في رمضانَ خمسَ خصالٍ لم تُعْطَهُ أُمَّةٌ قبلَهُم: خلوفُ فمِ الصَّائمِ أطيبُ عندَ اللهِ مِن ريحِ المسكِ، وتَسْتَغْفِرُ لَهُمُ المَلائكةُ حَتَّى يُفْطِروا، ويُزَيِّنُ اللهُ كلَّ يومٍ جنَّتَهُ ثمَّ يَقولُ: يوشِكُ عبادي الصَّالحونَ أنْ يُلقوا عنهُمُ المؤونةَ والأذى ويَصيروا إليكِ، وتُصَفَّدُ فيهِ مردةُ الشَّياطينِ فلا يَخْلُصونَ فيهِ إلى ما كانوا يَخْلُصونَ إليهِ في غيرِهِ، ويُغْفَرُ لهُم في آخرِ ليلةٍ». قيلَ: يا رسولَ اللهِ! أهيَ ليلةُ القدرِ؟ قالَ: «لا، ولكنَّ العاملَ إنَّما يُوَفَّى أجرَهُ إذا قَضى عملَهُ»[2].

---

(١) أخرجه الترمذي (٦٨٢)، وابن ماجه (١٦٤٢)، قال الحاكم: صحيح على شرط الشيخين.

(٢) أخرجه أحمد (٧٩١٧) وإسناده ضعيف.



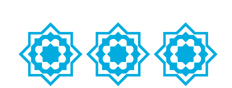
۞ وفي ليلةِ القدرِ تَنْتَشِر الملائكةُ في الأرضِ فيَبْطُلُ سلطانُ الشَّياطينِ:

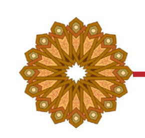
كَما قالَ تَعالَى: ﴿ تَنَزَّلُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَٱلرُّوحُ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِم مِّن كُلِّ أَمْرٍ ۝٤ سَلَٰمٌ هِىَ حَتَّىٰ مَطْلَعِ ٱلْفَجْرِ ﴾ [القدْر:٤ – ٥].

أَبْشِروا يا معاشرَ المسلمينَ! فهذهِ أبوابُ الجنَّةِ الثّمانيةُ في هذا الشَّهرِ لأجلِكُم قد فُتِحَتْ، ونسماتُها على قلوبِ المؤمنينَ قد نَفَحَتْ، وأبوابُ الجحيمِ كلُّها لأجلِكُم مغلقة، وأقدامُ إبْليسَ وذرِّيَّتِهِ مِن أجلِكُم موثقة. ففي هذا الشَّهرِ يُؤخَذُ مِن إبليسَ بالثَّارِ، وتُسْتَخْلَصُ العصاةُ مِن أسرِهِ فما يَبْقى لهُم عندَهُ آثار. كانوا أفراخَهُ قد غَذَّاهُم بالشَّهواتِ في أوكارِهِ فهجَروا اليومَ تلكَ الأوكار، نَقَضوا معاقلَ حصونِهِ بمعاولِ التَّوبةِ والاستغفارِ، خَرَجوا مِن سجنِهِ إلى حصنِ التَّقوى والإيمانِ فأَمِنُوا مِن عذابِ النَّار، قَصَموا ظهرَهُ بكلمةِ التَّوحيدِ فهوَ يَشْكُو ألمَ الانكسار. في كلِّ موسمٍ مِن مواسمِ الفضلِ يَحْزَنُ ففي هذا الشَّهْرِ يَدْعو بالويلِ والثُّبورِ

لِما يَرى مِن تنزُّلِ الرَّحمةِ ومغفرةِ الأوزار، غَلَبَ حزبُ الرَّحمنِ وهَرَبَ حزبُ الشَّيطانِ فما بَقيَ لهُ سلطانٌ إلاَّ على الكفَّار، عُزِلَ سلطانُ الهوى وصارَتِ الدَّولةُ لسلطانِ التَّقوى ﴿فَٱعۡتَبِرُواْ يَٰٓأُوْلِي ٱلۡأَبۡصَٰرِ﴾ [الحشر:٢].

يا نداماي صحَا القَلْبُ صَحا	فَاطْرُدوا عَنِّي الصِّبا وَالمَرَحا
هَـزَمَ العَقْـلُ جُنـودًا لِلْهَوى	فاسِدي لا تَعْجَبوا إنْ صَلَحا
زَجَرَ الحَقُّ فُـؤادِي فَارْعَوى	وَأفـاقَ القَلْبُ مِنِّي وصَحَا
بادِروا التَّوبَةَ مِـنْ قَبْلِ الرَّدى	فَـمُـنـاديـهِ يُـنـادِيـنـا الـوَحـا





المجلس الرابع

في ذكر العشر الأواخرِ من رمضان

في الصَّحيحينِ: عن عائِشَةَ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهَا؛ قالَتْ: كانَ رسولُ اللهِ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إذا دَخَلَ العشرُ؛ شَدَّ مئزَرَهُ وأحْيا ليلَهُ وأيْقَظَ أهلَهُ. هذا لفظُ البُخارِيّ.

ولفظُ مسلمٍ: أحيا الليلَ وأيْقَظَ أهلَهُ وجَدَّ وشَدَّ المئزرَ[1].

وفي روايةٍ لمسلم عنها؛ قالَتْ: كانَ النَّبيُّ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يجتهد في العشرِ الأواخرِ ما لا يَجْتَهِدُ في غيرِهِ.

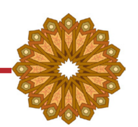
كانَ النَّبيُّ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَخُصُّ العشرَ الأواخرَ مِن رمضانَ بأعمالٍ لا يَعْمَلُها في بقيَّةِ الشَّهرِ.

فمنها: إحياءُ الليلِ.

فيُحْتَمَلُ أنَّ المرادَ إحياءُ الليلِ كلِّهِ.

---

(١) أخرجه البخاري (٢٠٢٤)، ومسلم (١١٧٤).



ويُحتَمَلُ أنْ يُريد بإحياءِ الليلِ إحياءَ غالبِهِ.

ويُؤَيِّدُهُ ما في «صحيح مسلم»: عن عائِشَةَ؛ قالَتْ: ما أعلَمُهُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قامَ ليلةً حتَّى الصَّباحِ[1].

ومنها: أنَّ النَّبيَّ كانَ يوقِظُ أهلَهُ للصَّلاةِ في ليالي العشرِ دونَ غيرِهِ مِن الليالي.

قالَ سُفْيانُ الثَّوريُّ: أحبُّ إليَّ إذا دَخَلَ العشرُ الأواخِرُ أنْ يَتَهَجَّدَ بالليلِ ويَجْتَهِدَ فيهِ ويُنْهِضَ أهلَهُ وولدَهُ إلى الصَّلاةِ إنْ أطاقوا ذلكَ.

وقد صَحَّ عنِ النَّبيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أنَّهُ كانَ يَطْرُقُ فاطِمَةَ وعَليًّا ليلاً فيقولُ لهُما: «ألا تَقومانِ فتُصَلِّيانِ»[2].

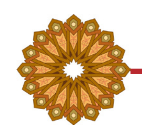
وكانَ يوقِظُ عائِشَةَ بالليلِ إذا قضى تهجُّدَهُ وأرادَ أنْ يُوتِر.

ووَرَدَ التَّرغيبُ في إيقاظِ أحدِ الزَّوجينِ صاحِبَهُ للصَّلاةِ

---

(١) أخرجه مسلم (٧٤٦).

(٢) تقدَّم تخريجه، وهو في الصحيحين.



ونضحِ الماءِ في وجهِهِ.

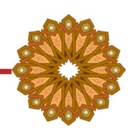
وفي «الموطّأ»: أنَّ عمرَ بنَ الخَطَّابِ كانَ يُصلِّي مِن الليلِ ما شاءَ اللهُ أنْ يُصَلِّيَ، حتَّى إذا كانَ نصفُ الليلِ؛ أيْقَظَ أهلَهُ للصَّلاةِ، يقولُ لهُمُ: الصَّلاةَ الصَّلاةَ، ويَتْلو هذهِ الآيةَ: ﴿وَأۡمُرۡ أَهۡلَكَ بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱصۡطَبِرۡ عَلَيۡهَا﴾ [طه:١٣٢].

كانَتِ امرأةُ حبيب أبي مُحَمَّدٍ تَقولُ لهُ بالليل: قد ذَهَبَ الليلُ، وبينَ أيدينا طريقٌ بعيدٌ، وزادُنا قليلٌ، وقوافلُ الصَّالحينَ قد سارَتْ قدَّامَنا، ونحنُ قد بَقِينا!

يـا نائِمًـا بِاللَّيْـلِ كَـمْ تَرْقُـدُ	قُمْ يا حَبيبِي قَدْ دَنا المَوْعِدُ
وَخُـذْ مِـنَ الليـلِ وَأَوْقاتِـهِ	وِرْدًا إذا ما هَـجَـعَ الـرُّقَّـدُ
مَـن نَـامَ حَتَّـى يَنْقَضِـي لَيْلُهُ	لَـمْ يَبْلُغِ المَنْزِلَ أَوْ يَجْهَدُ

۞ ومنها: أنَّ النَّبيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كانَ يَشُدُّ المئزر

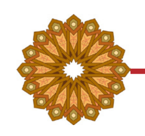
واخْتَلَفوا في تفسيرِهِ: فمنهُم مَن قالَ: هوَ كنايةٌ عن شدَّةِ جِدِّهِ واجتهادِهِ في العبادةِ، كما يُقالُ: فلانٌ يَشُدُّ وسطَهُ ويَسْعى



في كذا. وهذا فيهِ نظرٌ؛ فإنَّها قالَتْ: «جَدَّ وشَدَّ المئزر»، فعَطَفَتْ شدَّ المئزرَ على جدِّهِ.

والصَّحيحُ أنَّ المرادَ اعتزالُهُ للنِّساءِ، وبذلكَ فسَّرَهُ السَّلفُ والأئمَّةُ المتقدِّمونَ.

وقد كانَ النَّبيُّ ﷺ **غالبًا يَعْتَكِفُ العشرَ الأواخرَ**، والمعتكفُ ممنوعٌ مِن قربانِ النِّساءِ بالنَّصِّ والإجماعِ، وقد قالَ طائفةٌ مِن السَّلفِ في تفسيرِ قولِهِ تعالَى: ﴿فَٱلْـَٔـٰنَ بَـٰشِرُوهُنَّ وَٱبْتَغُوا۟ مَا كَتَبَ ٱللَّهُ لَكُمْ﴾ [البقرة:١٨٧]: إنَّهُ طلبُ ليلةِ القدرِ. والمعنى في ذلكَ أنَّ الله تعالَى لمَّا أباحَ مباشرةَ النِّساءِ في ليالي الصِّيامِ إلى أنْ يَتَبَيَّنَ الخيطُ الأبيضُ مِن الخيطِ الأسودِ؛ أمَرَ مَعَ ذلكَ بطلبِ ليلةِ القدرِ، لئلاَّ يَشْتَغِلَ المسلمونَ في طولِ ليالي الشَّهرِ بالاستمتاعِ المباحِ فيفوتُهُم طلبُ ليلةِ القدرِ، فأمَرَ معَ ذلكَ بطلبِ ليلةِ القدرِ بالتَّهجُّدِ مِن الليلِ، خصوصًا في الليالي المرجوِّ فيها ليلةُ القدرِ، فمِن هُنا كانَ النَّبيُّ ﷺ يُصيبُ مِن أهلِهِ في العشرينَ مِن رمضانَ، ثمَّ يَعْتَزِلُ نساءَهُ ويَتَفَرَّغُ لطلبِ ليلةِ القدرِ في العشرِ الأواخرِ.



۞ ومنها: اغتسالُهُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بينَ العشاءينِ

وقالَ حَمَّادُ بنُ سَلَمَةَ: كانَ ثابِت البُنانِيُّ وحُمَيْدٌ الطَّويلُ يَلبَسانِ أحسنَ ثيابِهِما ويَتَطيَّبانِ ويُطَيِّبونَ المسجدَ بالنَّضوحِ والدُّخنةِ[1] في الليلةِ التي تُرْجى فيها ليلةُ القدرِ.

وقالَ ثابتُ البُنانِيُّ: كانَ لتَميمِ الدَّارِيِّ حلَّةٌ اشْتَراها بألفِ درهمٍ، كانَ يَلْبَسُها في الليلةِ التي يُرْجى فيها ليلةُ القدرِ.

فتبَيّنَ بهذا أنَّهُ يُسْتَحَبُّ في الليالي التي تُرْجى فيها ليلةُ القدرِ التَّنظُّفُ والتَّزيُّنُ والتَّطيُّبُ بالغسلِ والطِّيبِ واللباسِ الحسنِ، كما يُشْرَعُ ذلكَ في الجمعِ والأعيادِ. وكذلكَ يُشْرَعُ أخذُ الزِّينةِ بالثِّيابِ في سائرِ الصَّلواتِ، كما قالَ تعالَى: ﴿خُذُواْ زِينَتَكُمْ عِندَ

---

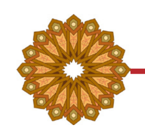
(١) النَّضوح: طيب سائل يُرش على فرش المسجد وأرضيَّاته. والدُّخنة: هي البخور الذي يُطيَّب به البيت أو المسجد. وقد رأيت المداخن "المباخر" في رمضان الماضي ١٤٣٦هـ تجوب أرجاء المسجد النبوي الشريف في كل ليلة مرتين: الأولى قبل صلاة العشاء، والأخرى قبل صلاة قيام الليل بعد منتصف الليل في العشر الأواخر، وكان الناس يفرحون بدخول تلك المباخر، فإن الطيب سبب لانشراح الصدر وتجدد النشاط.

كُلِّ مَسْجِدٍ ﴾ [الأعراف:٣١]. وقالَ ابنُ عُمَرَ: اللهُ أحقّ أنْ يُتَزَيَّنَ لهُ. ويُرْوى عنهُ مرفوعًا.

ولا يَكْمُلُ التَّزَيُّنُ الظَّاهِرُ إلاَّ بتزيُّنِ الباطنِ بالتَّوبةِ والإنابةِ إلى اللهِ وتطهيرِهِ مِن أدناسِ الذُّنوبِ وأوضارِها؛ فإنَّ زينةَ الظَّاهِرِ معَ خرابِ الباطنِ لا تُغْني شيئًا. قالَ اللهُ تعالى: ﴿ يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ قَدۡ أَنزَلۡنَا عَلَيۡكُمۡ لِبَاسٗا يُوَٰرِي سَوۡءَٰتِكُمۡ وَرِيشٗاۖ وَلِبَاسُ ٱلتَّقۡوَىٰ ذَٰلِكَ خَيۡرٞۚ ذَٰلِكَ مِنۡ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ لَعَلَّهُمۡ يَذَّكَّرُونَ ﴾ [الأعراف:٢٦]

إذا المَرْءُ لَمْ يَلْبَسْ ثِيابًا مِنَ التُّقى   تَقَلَّبَ عُرْيانًا وَإنْ كانَ كاسِيا

لا يَصْلُحُ لمناجاةِ الملوكِ في الخلواتِ إلاَّ مَن زَيَّنَ ظاهرَهُ وباطنَهُ وطَهَّرَهُما، خصوصًا ملكَ الملوكِ الذي يَعْلَمُ السِّرَّ وأخفى، وهوَ لا يَنْظُرُ إلى صورِكُم وإنَّما يَنْظُرُ إلى قلوبِكُم وأعمالِكُم، فمَن وَقَفَ بينَ يديهِ؛ فلْيُزَيِّنْ له ظاهرَهُ باللباسِ وباطنَهُ بلباسِ التَّقوى.



ومنها: الاعتكافُ

ففي الصَّحيحينِ: عن عائِشَةَ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهَا؛ أنَّ النَّبيَّ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كانَ يَعْتَكِفُ العشرَ الأواخرَ مِن رمضانَ حتَّى تَوَفَّاهُ اللهُ[(١)].

وفي «صحيح البُخاريِّ»: عن أبي هُرَيْرَةَ؛ قالَ: كانَ رسولُ اللهِ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَعْتَكِفُ في كلِّ رمضانَ عشرةَ أيَّامٍ، فلمَّا كانَ العامُ الذي قُبِضَ فيهِ، اعتكَفَ عشرينَ[(٢)].

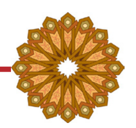
وإنَّما كانَ يَعْتَكِفُ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في هذهِ العشرِ التي يُطْلَبُ فيها ليلةُ القدرِ قطعًا لأشغالِهِ وتفريغًا لبالِهِ وتخلِّيًا لمناجاةِ ربِّهِ وذكرِهِ ودعائِهِ. وكانَ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَحْتَجِرُ حصيرًا يَتَخَلَّى فيها عنِ النَّاسِ فلا يُخالِطُهُم ولا يَشْتَغِلُ بهِم.

ولهذا ذَهَبَ الإمامُ أحْمَدُ إلى أنَّ المعتكف لا يُسْتَحَبُّ لهُ مخالطةُ النَّاسِ، حتَّى ولا لتعليمِ علمٍ وإقراءِ قرآنٍ، بلِ الأفضلُ

---

(١) تقدَّم تخريجه.

(٢) تقدَّم تخريجه.



لهُ الانفرادُ بنفسِهِ والتَّخلِّي بمناجاةِ ربِّهِ وذكرِهِ ودعائِهِ.

فالخلوةُ المشروعةُ لهذِهِ الأمَّةِ هيَ الاعتكافُ في المساجدِ، خصوصًا في شهرِ رمضانَ، خصوصًا في العشرِ الأواخرِ منهُ، كما كانَ النَّبيُّ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَفْعَلُهُ.

فمعنى الاعتكافِ وحقيقتُهُ: قطع العلائقِ عنِ الخلائقِ للاتِّصالِ بخدمةِ الخالقِ، وكلَّما قَويَتِ المعرفةُ باللهِ والمحبَّةُ لهُ والأُنسُ بهِ، أَوْرَثَتْ صاحبَها الانقطاعَ إلى اللهِ تَعالى بالكليَّةِ على كلِّ حالٍ.

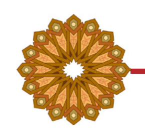
❊ ❊ ❊

يا ليلةَ القدرِ! للعابدينَ اشْهَدي.

يا أقدامَ القانتينَ! اركَعي لربِّكِ واسْجُدِي.

يا ألسنةَ السَّائلينَ! جُدِّي في المسألةِ واجْتَهِدِي.

يا رِجالَ اللَّيْلِ جدُّوا ... رُبَّ داعٍ لا يُردُّ
ما يَقومُ اللَّيْلَ إلاَّ ... مَنْ لَهُ عَزْمٌ وَجِدُّ



يا مَن ضاعَ عمرُهُ في لا شيء!

اسْتَدرِكْ ما فاتَكَ في ليلةِ القدرِ؛ فإنَّها تُحْسَبُ بالعمرِ.

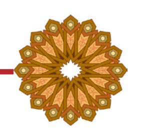
وَلَيْلَةِ وَصْلٍ باتَ مُنْجِزُ وَعْدِهِ سَمِيرِيَ فيها بَعْدَ طولِ مَطالِ
شَفَيْتُ بِها قَلْبًا أُطيلَ عَليلُهُ زَمانًا فَكانَتْ لَيْلَةً بِلَيالي

قالَ اللهُ تَعالَى: ﴿إِنَّآ أَنزَلۡنَٰهُ فِي لَيۡلَةِ ٱلۡقَدۡرِ ۝١ وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا لَيۡلَةُ ٱلۡقَدۡرِ ۝٢ لَيۡلَةُ ٱلۡقَدۡرِ خَيۡرٞ مِّنۡ أَلۡفِ شَهۡرٖ﴾ [القدر:١-٣].

قالَ مالِكٌ: بَلَغَني أنَّ رسولَ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أُرِيَ أعمارَ النَّاسِ قبلَهُ أو ما شاءَ اللهُ مِن ذلكَ، فكأنَّهُ تَقاصَرَ أعمارَ أُمَّتِهِ ألَّا يَبْلُغُوا مِن العملِ الذي بَلَغَ غيرُهُم في طولِ العمرِ، فأعْطاهُ اللهُ ليلةَ القدرِ خيرًا مِن ألفِ شهرٍ.

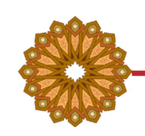
وفي الصَّحيحينِ: عن أبي هُرَيْرَةَ، عنِ النَّبيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؛ قالَ: «مَن قامَ ليلةَ القدرِ إيمانًا واحتسابًا؛ غُفِرَ لهُ ما تقدَّمَ مِن ذنْبِهِ»[1].

(١) أخرجه البخاري (٢٠٠٨)، ومسلم (٧٥٩).



فالمبادرةَ المبادرةَ إلى اغتنامِ العملِ فيما بَقِيَ مِن الشَّهرِ، فعسى أنْ يُسْتَدْرَكَ بِهِ ما فاتَ مِن ضياعِ العمرِ.

تَـوَلَّـى الـعُـمْـرُ في سَـهْـوٍ ... وَفي لَـهْـوٍ وفي خُـسْـرِ
فـيـا ضَـيْـعَـةَ مـا أنْـفَـقْـ ... ـتُ في الأيَّامِ مِنْ عُمْرِي
وَمـا لـي في الـذي ضَـيَّـعْـ ... ـتُ مِنْ عُمْرِيَ مِنْ عُذْرِ
فَـمـا أغْـفَـلَـنـا عَـنْ وا ... جباتِ الحَمْدِ وَالشُّكْرِ
أمـا قَـدْ خَـصَّـنـا اللهُ ... بِـشَـهْـرٍ أيَّـمـا شَـهْـرِ
بِـشَـهْـرٍ أنْـزَلَ الـرَّحْـمـا ... نُ فيه أشْـرَفَ الـذِكْـرِ
وَهَـلْ يُـشْـبِـهُـهُ شَـهْـرٌ ... وَفـيـهِ لَـيْـلَـةُ الـقَـدْرِ
فَـكَـمْ مِـنْ خَـبَـرٍ صَـحَّ ... بِـمـا فيها مِـنَ الـخَـيْـرِ
رَوَيْـنـا عَـنْ ثِـقـاتٍ أنْـ ... ـنَها تُـطْـلَـبُ في الـوِتْـرِ
فَـطـوبـى لِاِمْـرِئٍ يَـطْـلُـ ... ـبُـها في هـذِهِ الـعَـشْـرِ
فَـفِـيـهـا تَـنْـزِلُ الأمْـلا ... كُ بِـالأنْـوارِ وَالـبِـرِّ
وَقَـدْ قـالَ سَـلامٌ هِـ ... ـيَ حَتَّى مَطْلَعِ الفَجْرِ
ألا فَـادَّخِـروهـا إنْـ ... ـنَها مِـنْ أنْفَسِ الذُخْرِ
فَـكَـمْ مِـنْ مُـعْـتَـقٍ فيها ... مِـنَ الـنَّـارِ وَلا يَـدْري



المجلس الخامس

في ذكر السبع الأواخر من رمضان

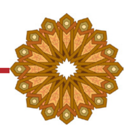
في الصَّحيحين: عنِ ابنِ عُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا؛ أنَّ رجالاً مِن أصحابِ النَّبيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أُروا ليلةَ القدرِ في المنامِ في السَّبعِ الأواخِرِ. فقالَ رسولُ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «أرى رؤياكُم قد تَواطَأَتْ في السَّبعِ الأواخِرِ، فمَن كانَ متحرِّيَها فليَتَحَرَّها في السَّبْعِ الأواخِرِ»[1].

وفي «صحيح مسلم»: عنهُ، عنِ النَّبيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؛ قالَ: «التَمِسوها في العشرِ الأواخِرِ، فإنْ ضَعُفَ أحدُكُم أو عَجَزَ، فلا يُغْلَبَنَّ على السَّبْعِ البواقي».

قد ذَكَرنا فيما تَقَدَّمَ أنَّ النَّبيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كانَ يَجْتَهِدُ في شهرِ رمضانَ على طلبِ ليلةِ القدرِ، وأنَّهُ اعتكَفَ مرَّةً العشرَ الأوَّلَ منهُ، ثمَّ طَلَبَها فاعتكَفَ بعدَ ذلكَ العشرَ الأوسطَ في

---

(١) أخرجه البخاري (٢٠١٥)، ومسلم (١١٦٥).



طلبِها، وأنَّ ذلكَ تَكَرَّرَ منهُ غيرَ مرَّةٍ، ثمَّ اسْتَقَرَّ أمرُهُ على اعتِكافِ العشرِ الأواخرِ في طلبِها وأمَرَ بطلبِها فيهِ.

ففي الصَّحيحينِ: عن عائِشَةَ؛ أنَّ النَّبيَّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قالَ: «تَحرَّوْا ليلةَ القدرِ في العشرِ الأواخرِ مِن رمضانَ»[1].

والأحاديثُ في المعنى كثيرةٌ.

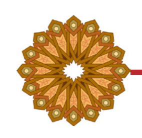
وكانَ يأمُرُ بالتماسِها في أوتارِ العشرِ الأواخِرِ:

ففي «صحيح البُخارِيّ»: عنِ ابنِ عبَّاسٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا؛ عن رسولِ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؛ قالَ: «التَمِسوا ليلةَ القدرِ في العشرِ الأواخرِ مِن رمضانَ؛ في تاسعةٍ تَبْقى، في سابعةٍ تَبْقى، في خامسةٍ تَبْقى»[2].

ثمَّ بعدَ ذلكَ أمَرَ بطلبِها في السَّبْعِ الأواخِرِ.

وقال الجمهورُ: هيَ منحصرةٌ في العشرِ الأواخرِ، واختَلَفوا

(١) أخرجه البخاري (٢٠٢٠)، ومسلم (١١٦٩).
(٢) تقدَّم تخريجه.



في أيِّ ليالي العشرِ أرجى:

وقالَ الأكثرونَ: بل بعض لياليهِ أرجى مِن بعضٍ، وقالوا: الأوتارُ أرجى في الجملةِ.

ثمَّ اخْتَلَفوا: في أيِّ أوتارِهِ أرجى:

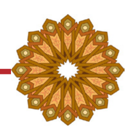
فمنهُمْ مَن قالَ: ليلةُ إحدى وعشرينَ. وهوَ المشهورُ عنِ الشَّافِعيِّ.

وَحُكِيَ للشَّافِعِيِّ قولٌ آخرُ؛ أنَّ أرجاها ليلةُ ثلاثٍ وعشرينَ.

ورَجَّحَتْ طائفةٌ ليلةَ سبع وعشرينَ، وحَكاهُ الثَّوْرِيُّ عن أهلِ الكوفةِ، فقالَ: نحنُ نَقولُ: هيَ ليلةُ سبعٍ وعشرينَ؛ لما جاءَنا عن أُبَيِّ بنِ كَعْبٍ.

ومِمَّنْ قالَ بهذا أُبَيُّ بنُ كَعْبٍ، وكانَ يَحْلِفُ على ذلك، وزِرّ بنُ حُبَيْشٍ، وعَبْدَةُ بنُ أبي لُبابَةَ.

ورُوِيَ عن قَنانِ بنِ عَبْدِ اللهِ النَّهْمِيِّ؛ قالَ: سَأَلْتُ زِرًّا عن



ليلةِ القدرِ. فقالَ: كانَ عُمَرُ وحُذَيْفَةُ وأُناسٌ مِن أصحابِ رسولِ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لا يَشُكُّونَ أنَّها ليلةُ سبعٍ وعشرينَ. خَرَّجَهُ ابنُ شَيْبَةَ. وهوَ قولُ أحْمَدَ وإسحاقَ.

واسْتَدَلَّ مَن رَجَّحَ ليلةَ سبعٍ وعشرينَ بأنَّ أُبَيَّ بنَ كَعْبٍ كانَ يَحْلِفُ على ذلكَ وَيَقولُ: بالآيةِ أو بالعلامةِ التي أخْبَرَنا بها رسولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أنَّ الشَّمسَ تَطْلُعُ صبيحتَها لا شعاعَ لها. خرَّجَهُ مسلمٌ[(١)].

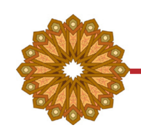
وفي «مسند الإمام أحمدَ»: عنِ ابنِ عبَّاسٍ؛ أنَّ رجلاً قالَ: يا رسولَ اللهِ! إنِّي شيخٌ كبيرٌ عليلٌ يَشُقُّ عليَّ القيامُ، فمُرنِي بليلةٍ لعلَّ اللهَ يُوَفِّقُنِي فيها لليلةِ القدرِ. قالَ: «عليكَ بالسَّابعةِ». وإسنادُهُ على شرطِ البُخاريِّ[(٢)].

وأمَّا العملُ في ليلةِ القدرِ؛ فقد ثَبَت عنِ النَّبيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ

---

(١) أخرجه مسلم (٧٦٢).

(٢) أخرجه أحمد (٢١٤٩)، وهو حديث صحيح كما ذكر المؤلف رَحِمَهُ اللهُ.



أَنَّهُ قالَ: «مَن قامَ ليلةَ القدرِ إيمانًا واحتسابًا؛ غُفِرَ لهُ ما تقَدَّمَ مِن ذنبِهِ»[1]. وقيامها إنَّما هوَ إحياؤُها بالتَّهجُّدِ فيها والصَّلاةِ.

وقد أمَرَ عائِشَةَ بالدُّعاءِ فيها أيضًا.

قالَ سُفيانُ الثَّورِيُّ: الدُّعاءُ في تلكَ الليلةِ أحبُّ إليَّ مِن الصَّلاةِ. ومرادُهُ أنَّ كثرةَ الدُّعاءِ أفضلُ مِن الصَّلاةِ التي لا يَكْثُرُ فيها الدُّعاءُ، وإنْ قَرَأ ودَعا كانَ حسنًا.

وقد كانَ النَّبيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَتَهَجّدُ في ليالي رمضانَ، ويَقْرأُ قراءة مرتَّلةً، لا يَمُرُّ بآيةٍ فيها رحمةٌ إلاَّ سَألَ ولا بآيةٍ فيها عذابٌ إلاَّ تَعوَّذَ، فيَجْمَعُ بينَ الصَّلاةِ والقراءةِ والدُّعاءِ والتَّفكُّرِ. وهذا أفضلُ الأعمالِ وأكملُها في ليالي العشرِ وغيرِها. واللهُ أعلمُ[2].

---

(١) سيأتي تخريجه، وهو في الصحيحين.

(٢) صدق المؤلف رَحِمَهُ اللَّهُ، فالصلاة تجمع ذلك كله: التلاوة والدعاء والذكر والركوع والسجود وغيرها، وعلى ذلك فينبغي للمسلم أن ينشغل بها أكثر من انشغاله بالدعاء أو الذِكر المجرد.

رياحُ هذهِ الأسحارِ تَحْمِلُ أنينَ المذنبينَ وأنفاسَ المحبِّينَ وقصصَ التَّائبينَ.

لو قامَ المذنبونَ في هذهِ الأسحارِ، على أقدامِ الانكسارِ، ورَفَعوا قَصَصَ[1] الاعتذار، مضمونُها ﴿فَلَمَّا دَخَلُوا۟ عَلَيْهِ قَالُوا۟ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلْعَزِيزُ مَسَّنَا وَأَهْلَنَا ٱلضُّرُّ وَجِئْنَا بِبِضَـٰعَةٍ مُّزْجَىٰةٍ فَأَوْفِ لَنَا ٱلْكَيْلَ وَتَصَدَّقْ عَلَيْنَآ﴾ [يوسف:٨٨]؛ لَبرَزَ لهُمُ التَّوقيعُ عليها ﴿قَالَ لَا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ ٱلْيَوْمَ يَغْفِرُ ٱللَّهُ لَكُمْ وَهُوَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ﴾ [يوسف:٩٢].

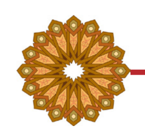
قالَتْ عائِشَةُ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهَا للنَّبيِّ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: أرَأيْتَ إنْ وافقْتُ ليلةَ القدرِ؛ ما أقولُ فيها؟ قالَ: «قولي: اللَّهُمَّ! إنَّكَ عفوٌّ تُحِبُّ العفوَ فاعْفُ عَنِّي»[2].

العفوُّ مِن أسماءِ اللهِ تعالَى، وهوَ المتجاوزُ عن سيِّئاتِ

---

(١) القصص جمع قصَّة وهي العريضة التي يرفعها المحتاج للحاكم أو للغني أو المسؤول ليطلب فيها مالاً أو شيئًا.

(٢) أخرجه الترمذي (٣٥١٣) وقال: حديث حسن صحيح.



عبادِهِ، الماحي لآثارِها عنهُم.

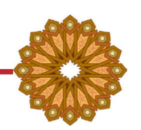
وهوَ يُحِبُّ العفوَ، ويُحِبُّ أنْ يَعْفُوَ عن عبادِهِ، ويُحِبُّ مِن عبادِهِ أنْ يَعْفُوَ بعضُهُم عن بعضٍ، فإذا عَفا بعضهم عن بعضٍ؛ عامَلَهُم بعفوِهِ، وعفوُهُ أحبُّ إليهِ مِن عقوبتِهِ. وكانَ النَّبيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقولُ: «أعوذُ برضاكَ مِن سخطِكَ وعفوِكَ مِن عقوبَتِكَ»[1].

لمَّا عَرَفَ العارفونَ جلالَهُ؛ خَضَعوا، ولمَّا سَمِعَ المذنبونَ بعفوِهِ، طمِعوا.

لولا طمعُ المذنبينَ في العفوِ؛ لاحْتَرَقَتْ قلوبُهُم باليأسِ مِن الرَّحمةِ، ولكنَّ القلوب إذا ذَكَرَتْ عفوَ اللهِ؛ اسْتَرْوَحَتْ إلى بردِ عفوِهِ.

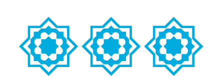
يـا كَـبيـرَ الـذَّنْــبِ عَـفْـوُ ... اللهِ مِـنْ ذَنْـبِـكَ أَكْـبَـرْ
أَكْــبَـــرُ الأَوْزارِ في ... جَنْبِ عَـفْـوِ اللهِ يَصْغُرْ

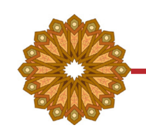
(١) أخرجه مسلم (٤٨٦).



وإنَّما أمَرَ بسؤالِ العفوِ في ليلةِ القدرِ بعدَ الاجتهادِ في الأعمالِ فيها وفي ليالي العشرِ؛ لأنَّ العارفينَ يَجْتَهِدونَ في الأعمالِ، ثمَّ لا يَرَوْنَ لأنفسِهِم عملاً صالحًا ولا حالاً ولا مقالاً، فيَرْجِعونَ إلى سؤالِ العفوِ كحالِ المذنبِ المقصِّرِ.

يـا رَبِّ عَـبْـدُكَ قَـدْ أتـا	كَ وَقَـدْ أسـاءَ وَقَـدْ هَفا
يَـكْـفـيـهِ مِـنْـكَ حَـيـاؤُهُ	مِـنْ سـوءِ ما قَـدْ أسْلَفا
حَمَلَ الذُّنوبَ عَلى الذُّنو	بِ الموبِقاتِ وَأسْـرَفا
وَقَـدِ اسْـتَـجارَ بِـذَيْـلِ عُفـ	ـوِكَ مِنْ عِقابِكَ مُلْحِفا
يـا رَبِّ فَـاعْـفُ وَعـافِـهِ	فَـلأنْـتَ أوْلـى مَـن عَفا





المجلس السادس

في وداع شهر رمضان

في الصَّحيحينِ مِن حديثِ: أبي هُرَيْرَةَ، عنِ النَّبيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؛ قالَ: «مَن صامَ رمضانَ إيمانًا واحتسابًا؛ غُفِرَ لهُ ما تَقَدَّمَ من ذنبِهِ، ومَن قامَ ليلةَ القدرِ إيمانًا واحتسابًا؛ غُفِرَ لهُ ما تقدَّمَ مِن ذنبِهِ»[1].

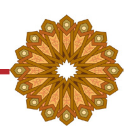
وفيهِما أيضًا مِن حديثِ: أبي هُرَيْرَةَ أيضًا؛ عنِ النَّبيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؛ قالَ: «مَن قامَ رمضانَ إيمانًا واحتسابًا؛ غُفِرَ لهُ ما تَقَدَّمَ مِن ذنبِهِ»[2].

وقد رُوِيَ أنَّ الصَّائمينَ يَرْجِعونَ يومَ الفطرِ مغفورًا لهُم، وأنَّ يومَ الفطرِ يُسَمَّى يومَ الجوائزِ، وفيه أحاديثُ ضعيفةٌ.

إذا كمَّلَ الصَّائمونَ صيامَ رمضانَ وقيامَهُ؛ فقد وَفَّوْا ما

(١) أخرجه البخاري (١٩٠١)، ومسلم (٤٨٦).

(٢) أخرجه البخاري (٢٠٠٨)، ومسلم (٧٥٩).



عليهِم مِن العملِ، وبَقِيَ ما لَهُمْ مِن الأجرِ، وهوَ المغفرةُ، فإذا خَرَجوا يومَ عيدِ الفطرِ إلى الصَّلاةِ، قُسِّمَتْ عليهِم أُجورُهُم، فرَجَعوا إلى منازِلِهِم وقدِ استَوْفَوا الأجرَ واسْتَكْمَلُوهُ.

مَن وَفَّى ما عليهِ من العمل كاملاً؛ وُفِّيَ لهُ الأجرُ كاملاً، ومَن سَلَّمَ ما عليهِ موفَّرًا؛ تَسَلَّمَ ما لهُ نقدًا لا مؤخَّرًا.

قالَ سَلمانُ: الصَّلاةُ مكيالٌ، فَمن وَفَّى؛ وُفِّيَ لهُ، ومَن طَفَّفَ؛ فقد عَلِمتُمْ ما قيلَ في المطفِّفينَ.

فالصِّيامُ وسائر الأعمالِ على هذا المنوالِ: مَن وَفَّاها؛ فهوَ مِن خيارِ عبادِ اللهِ الموفِّينَ، ومَن طَفَّفَ فيها؛ فويلٌ للمطفِّفينَ.

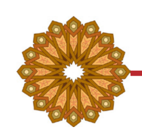
أما يَسْتَحيي مَن يَسْتَوْفي مكيالَ شهواتِهِ ويُطَفِّفُ في مكيالِ صيامِهِ وصلاتِهِ؟! ألا بعدًا لِمَدْيَنَ! [(١)]

في الحديثِ: «أسوأُ النَّاسِ سرقةً الذي يَسْرِقُ صلاتَهُ»[(٢)].

---

(١) هذه العبارة اقتباس من قوله تعالى: ﴿أَلَا بُعْدًا لِّمَدْيَنَ كَمَا بَعِدَتْ ثَمُودُ﴾ [هود:٩٥] ومناسبتها الحديث عن التطفيف الذي اشتهر به أصحاب مدين قوم شعيب عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ.

(٢) أخرجه أحمد (١١٥٣٢)، قال الهيثمي: رجاله رجال الصحيح.



إذا كانَ الويلُ لمَن طَفَّفَ مكيالَ الدُّنيا؛ فكيفَ حالُ مَن طَفَّفَ مكيالَ الدِّينِ! ﴿فَوَيْلٌ لِّلْمُصَلِّينَ ۝٤ ٱلَّذِينَ هُمْ عَن صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ﴾ [الماعون:٤ – ٥].

غَدًا تُوَفَّى النُّفوسُ ما كَسَبَتْ ... وَيَحْصُدُ الزَّارعونَ ما زَرَعوا

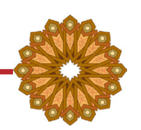
إنْ أحْسَنوا أحْسَنوا لأنفُسِهِمْ ... وَإنْ أساؤوا فَبِئْسَ ما صَنَعوا

كانَ السَّلفُ الصَّالِحُ يَجْتَهِدونَ في إتمامِ العملِ وإكمالِهِ وإتقانِهِ، ثمَّ يَهْتَمُّونَ بعدَ ذلك بقبولِهِ ويَخافونَ مِن ردِّهِ، وهؤلاءِ الذين ﴿يُؤْتُونَ مَآ ءَاتَواْ وَّقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ﴾ [المؤمنون:٦٠].

رُوِيَ عن عَلِيٍّ؛ قالَ: كونوا لقبولِ العملِ أشدَّ اهتمامًا منكُم بالعملِ، ألَمْ تَسْمَعوا اللهَ عَزَّوَجَلَّ يقولُ: ﴿إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ ٱللَّهُ مِنَ ٱلْمُتَّقِينَ﴾ [المائدة:٢٧].

وقالَ مالكُ بن دينارٍ: الخوفُ على العملِ أنْ لا يُتقبَّلَ أشدُّ مِن العملِ.

شهرُ رمضانَ تَكْثُرُ فيهِ أسبابُ الغفرانِ. فمِن أسبابِ



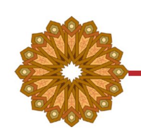
المغفرةِ فيهِ صيامُهُ وقيامُهُ وقيامُ ليلةِ القدرِ فيهِ، كما سبَقَ. ومنها تفطيرُ الصُّوَّامِ والتَّخفيفُ عنِ المملوكِ[1]. ومنها الذِّكرُ. ومنها الاستغفارُ، والاستغفارُ طلبُ المغفرةِ، ودعاءُ الصَّائمِ يُسْتَجابُ في صيامِهِ وعندَ فطرِهِ، ولهذا كانَ ابنُ عُمَرَ إذا أَفْطَرَ يَقولُ: اللَّهُمَّ! يا واسعَ المغفرةِ! اغْفِرْ لي.

فلمَّا كَثُرَتْ أسبابُ المغفرةِ في رمضانَ؛ كانَ الذي تَفوتُهُ المغفرةُ فيهِ محرومًا غايةَ الحرمانِ.

في «**صحيح ابنِ حِبَّان**»: عن أبي هُرَيْرَةَ؛ أنَّ النَّبيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ صَعِدَ المنبرَ فقالَ: «آمينَ، آمينَ، آمينَ». قيلَ: يا رسولَ اللهِ! إنَّكَ صَعِدْتَ المنبرَ فقُلْتَ آمينَ آمينَ آمينَ. قالَ: «إنَّ جبْريلَ أتاني فقالَ: مَن أدْرَكَ شهرَ رمضانَ فلمْ يُغْفَرْ لهُ فدَخَلَ النَّارَ فأبْعَدَهُ اللهُ، قُلْ آمينَ، فقُلْتُ آمينَ. ومَن أدْرَكَ أبويهِ أو أحدَهُما فلم يبَرَّهُما فماتَ فدَخلَ النَّارَ فأبْعَدَهُ اللهُ، قُلْ آمينَ، فقُلْتُ

---

(١) ومثل التخفيف عن المماليك التخفيف عن الخدم والعمال والموظفين، فينبغي مراعاتهم والتخفيف عليهم في كل الأوقات وفي رمضان خاصَّة.



آمينَ. ومَن ذُكِرْتَ عندَهُ فلم يُصَلِّ عليكَ فماتَ فدَخَلَ النَّارَ فأبْعَدَهُ اللهُ، قُلْ آمينَ، فقُلْتُ آمينَ»[1].

تَرَحَّلَ الشَّهْرُ وا لَهْفاهُ وَانْصَرَما ... وَاخْتَصَّ بِالفَوْزِ فِي الجَنَّاتِ مَن خَدَما

وَأَصْبَحَ الغافِلُ المِسْكِينُ مُنْكَسِرًا ... مِثْلي فيا وَيْحَهُ يا عُظْمَ ما حُرِما

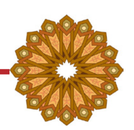
مَن فاتَهُ الزَّرْعُ في وَقْتِ البِذارِ فَما ... تَـراهُ يَحْصُدُ إلاَّ الهَمَّ وَالنَّدَما

وإنَّما كانَ يومُ الفطرِ مِن رمضانَ عيدًا لجميعِ الأُمَّةِ؛ لأنَّهُ يُعْتَقُ فيهِ أهلُ الكبائرِ مِن الصَّائمينَ مِن النَّارِ فيَلْتَحِقُ فيهِ المذنبونَ بالأبرارِ، كما أنَّ يومَ النَّحرِ هوَ العيدُ الأكبرُ؛ لأنَّ قبلَهُ يومَ عرفةَ، وهوَ اليومُ الذي لا يُرى في يومٍ مِن الدُّنيا أكثرَ عتقًا مِن النَّارِ منهُ. فمَن أُعْتِقَ مِن النَّارِ في اليومينِ؛ فلهُ يومُ عيدٍ، ومَن فاتَهُ العتقُ في اليومينِ، فلهُ يومُ وعيدٍ.

لمَّا كانَتِ المغفرةُ والعتقُ مِن النَّارِ كلٌّ منهُما مرتَّبًا على صيامِ رمضانَ وقيامِهِ؛ أمَرَ اللهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عندَ إكمالِ العدَّةِ

---

(١) أخرجه ابن حبان (٤٠٩)، وصحَّحه الشيخ الألباني في صحيح الترغيب والترهيب (٩٩٧).

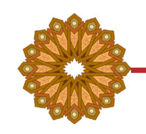


بتكبيرِهِ وشكرِهِ، فقالَ: ﴿وَلِتُكْمِلُوا۟ ٱلْعِدَّةَ وَلِتُكَبِّرُوا۟ ٱللَّهَ عَلَىٰ مَا هَدَىٰكُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ [البقرة:١٨٥]. فشُكرُ مَن أنْعَمَ على عبادِهِ بتوفيقِهِم للصِّيامِ وإعانتِهِم عليهِ ومغفرتِهِ لهُم بهِ وعتقِهِم بهِ مِن النَّارِ أنْ يَذْكُروهُ ويَشْكُروهُ ويَتَّقُوهُ حقَّ تقاتِهِ. وقد فَسَّرَ ابنُ مَسْعودٍ تقواهُ حقَّ تقاتِهِ بأنْ يُطاعَ فلا يُعْصى ويُذْكَرَ فلا يُنْسى ويُشْكَرَ فلا يُكْفَرَ.

فيا أربابَ الذُّنوبِ العظيمةِ! الغنيمةَ الغنيمةَ في هذهِ الأيَّامِ الكريمةِ، فما منها عوضٌ ولا لها قيمةٌ! فكم يُعْتَقُ فيها مِن النَّارِ مِن ذي جريرةٍ وجريمةٍ! فمَن أُعْتِقَ فيها مِن النَّارِ فقد فازَ بالجائزةِ العميمةِ والمنحةِ الجسيمةِ.

يا مَن أعْتَقَهُ مولاهُ مِن النَّارِ! إيَّاكَ أنْ تَعودَ بعدَ أنْ صِرْتَ حُرًّا إلى رقِّ الأوزارِ. أيُبْعِدُكَ مولاكَ عنِ النَّارِ وأنتَ تَتَقَرَّبُ منها، ويُنْقِذُكَ منها وأنتَ توقِعُ نفسَكَ فيها ولا تَحيدُ عنها؟!

وإنَّ امْرَءًا يَنْجو مِنَ النَّارِ بَعْدَما ... تَـزَوَّدَ مِن أعْمالِها لَسَعيدُ



إنْ كانَتِ الرَّحمةُ للمحسنينَ؛ فالمسيءُ لا يَيْأَسُ منها، وإنْ تَكُنِ المغفرةُ مكتوبةً للمتَّقينَ؛ فالظّالِمُ لنفسِهِ غيرُ محجوبٍ عنها.

إنْ كانَ عَفْوُكَ لا يَرْجوهُ ذو خَطأٍ ... فَمَنْ يَجودُ على العاصينَ بِالكَرَمِ

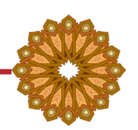
﴿ قُلْ يَٰعِبَادِىَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا۟ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًا ﴾ [الزُّمَر: ٥٣].

إن كانَ لا يَرْجوكَ إلاَّ مُحْسِنٌ ... فَمَنِ الذي يَرْجو ويَدْعو المُذْنِبُ

فيا أيُّها العاصي! وكلُّنا ذلك، لا تَقْنَطْ مِن رحمةِ اللهِ لسوءِ أعمالِك، فكم يُعْتَقُ مِن النَّارِ في هذهِ الأيَّامِ مِن أمثالِك! فأحْسِنِ الظَّنَّ بمولاكَ وتُبْ إليهِ؛ فإنَّهُ لا يَهْلِكُ على اللهِ إلاَّ هالك.

إذا أوْجَعَتْكَ الذُّنوبُ فَداوِها ... بِرَفْعِ يَدٍ في اللَّيْلِ وَاللَّيْلُ مُظْلِمُ
وَلا تَقْنِطَنْ مِنْ رَحْمَةِ اللهِ إنَّما ... قُنوطُكَ مِنْها مِنْ ذُنوبِكَ أعْظَمُ
فَرَحْمَتُهُ لِلْمُحْسِنينَ كَرامَةٌ ... وَرَحْمَتُهُ لِلْمُذْنِبينَ تَكَرُّمُ

يَنْبَغِي لمَن يَرْجو العتقَ مِن النَّارِ في شهرِ رمضانَ أنْ يأتِيَ



بأسبابٍ توجبُ العتقَ مِن النَّارِ، وهيَ متيسِّرةٌ في هذا الشَّهرِ.

وكانَ أبو قِلابَةَ يُعْتقُ في آخرِ الشَّهرِ جاريةً حسناءَ مزيَّنةً يَرْجو بعتقِها العتقَ مِن النَّارِ.

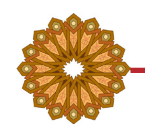
وفي حديثِ سَلْمَانَ المرفوعِ الذي في «صحيح ابنِ خُزَيْمَة»: «مَن فَطَّرَ فيهِ صائمًا؛ كانَ عتقًا لهُ مِن النَّارِ، ومَن خَفَّفَ فيهِ عن مملوكِهِ؛ كانَ عتقًا لهُ مِن النَّار»[(١)].

وفيهِ أيضًا: «فاسْتَكْثِروا فيهِ مِن خصلتينِ تُرْضونَ بِهما ربَّكُم وخصلتينِ لا غنى بكُم عنهُما. فأمَّا الخصلتانِ اللتانِ تُرْضونَ بِهما ربَّكُم، فشهادةُ أنْ لا إلهَ إلاَّ اللهُ والاستغفارُ. وأمَّا اللتانِ لا غنى بكُم عنهُما؛ فتَسْألونَ اللهَ تعَالَى الجنَّةَ وتَعُوذونَ بهِ مِن النَّارِ».

فهذِهِ الخصالُ الأربعُ المذكورةُ في هذا الحديثِ؛ كلٌّ منها سببٌ للعتقِ والمغفرةِ:

---

(١) أخرجه ابن خزيمة (١٨٨٧) وهو حديث ضعيف.



* **فأمَّا كلمةُ التَّوحيدِ؛** فإنَّها تَهْدِمُ الذُّنوبَ وتَمْحوها محوًا ولا تُبْقِي ذنبًا ولا يَسْبِقُها عملٌ[١]، وهيَ تَعْدِلُ عتقَ الرِّقابِ الذي يوجبُ العِتقَ مِن النَّارِ. ومَن أتى بها أربعَ مرارٍ حينَ يُصْبِحُ وحينَ يُمْسي؛ أعْتَقَهُ اللهُ مِن النَّارِ، ومَن قالَها خالصًا مِن قلبِه؛ حَرَّمَهُ اللهُ على النَّارِ.

* **وأمَّا كلمةُ الاستغفارِ؛** فمِن أعظمِ أسبابِ المغفرةِ؛ فإنَّ الاستغفارَ دعاءٌ بالمغفرةِ، ودعاءُ الصَّائمِ مستجابٌ في حالِ صيامِهِ وعندَ فطرِهِ. وقد سَبَقَ حديثُ أبي هُرَيْرَةَ: «ويُغْفَرُ فيهِ (يعْنِي: شهرَ رمضانَ) إلاَّ لمَن أبى». قالوا: يا أبا هُرَيْرَةَ! ومَن أبى؟ قالَ: مَن أبى أنْ يَسْتَغْفِرَ اللهَ عَزَّوَجَلَّ.

قالَ الحَسَنُ أكْثِروا مِن الاستغفارِ؛ فإنَّكُم لا تَدْرونَ متى تَنْزِلُ الرَّحمةُ. وقالَ لُقمانُ لابنِهِ: يا بنيَّ! عَوِّدْ لسانَكَ الاستغفارَ؛ فإنَّ للهِ ساعاتٍ لا يَرُدُّ فيهنَّ سائلاً.

---

(١) المعنى: أنه لا يسبقها في الفضل شيء من الأعمال الصالحة، أي أنها أفضل الأعمال على الإطلاق.

وقد جَمَعَ اللهُ بينَ التَّوحيدِ والاستغفارِ في قولِهِ تعالَى:

﴿ فَٱعْلَمْ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ وَٱسْتَغْفِرْ لِذَنۢبِكَ ﴾ [محمد:١٩].

وفي بعضِ الآثارِ؛ أنَّ إبليسَ قالَ: أهْلَكْتُ النَّاسَ بالذُّنوبِ وأهْلَكوني بلا إلهَ إلاَّ اللهُ والاستغفار.

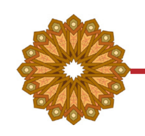
والاستغفارُ ختامُ الأعمالِ الصَّالحةِ كلِّها: فتُخْتَمُ بهِ الصَّلاةُ والحجُّ وقيامُ الليلِ. ويُخْتَمُ بهِ المجالسُ: فإنْ كانَتْ ذكرًا؛ كانَ كالطَّابعِ عليها، وإنْ كانَت لغوًا؛ كانَ كفَّارَةً لها. فكذلك ينبغي أنْ يُخْتَم صيامُ رمضانَ بالاستغفارِ.

كَتَبَ عُمَرُ بنُ عبْدِ العَزيزِ إلى الأمصارِ(١) يَأمُرُهُم بختمِ شهرِ رمضانَ بالاستغفارِ والصَّدقةِ؛ صدقةِ الفطرِ؛ فإنَّ صدقةَ الفطرِ طهرةٌ للصائمِ مِن اللغوِ والرَّفثِ، والاستغفارُ يَرْقَعُ ما تَخَرَّقَ مِن الصِّيامِ باللغوِ والرَّفثِ.

ولهذا قالَ بعضُ العلماءِ المتقدِّمينَ: إنَّ صدقةَ الفطرِ للصَّائمِ كسجدتيِ السَّهوِ للصَّلاةِ.

---

(١) الأمصار هي البلدان، جمع مِصر وهو البلد.

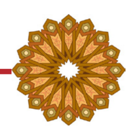


وقالَ عُمَرُ بنُ عَبْدِ العزيزِ في كتابِهِ: قولوا كما قالَ أبوكُم آدَمُ: ﴿رَبَّنَا ظَلَمْنَآ أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾ [الأعراف:٢٣]، وقولوا كما قالَ نوحٌ: ﴿وَإِلَّا تَغْفِرْ لِي وَتَرْحَمْنِيٓ أَكُن مِّنَ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾ [هود:٤٧]. وقولوا كما قالَ إبراهيمُ: ﴿وَٱلَّذِيٓ أَطْمَعُ أَن يَغْفِرَ لِي خَطِيٓـَٔتِي يَوْمَ ٱلدِّينِ﴾ [الشعراء:٨٢]، وقولوا كما قالَ موسى: ﴿رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي فَٱغْفِرْ لِي﴾ [القصص:١٦]. وقولوا كما قالَ ذو النُّونِ: ﴿لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبْحَٰنَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [الأنبياء:٨٧].

الصِّيامُ جُنَّةٌ(١) مِن النَّارِ ما لمْ يُخَرِّقْها، والكلامُ السَّيِّئُ يُخَرِّقُ هذهِ الجُنَّةَ، والاستغفارُ يُرَقِّعُ ما تَخَرَّقَ منها.

فصيامُنا هذا يَحتاجُ إلى استغفارٍ نافعٍ وعملٍ صالحٍ لهُ شافعٍ! كم نُخَرِّقُ صيامَنا بسهامِ الكلامِ ثمَّ نرَقِّعُهُ وقدِ اتَّسَعَ الخرقُ على الرَّاقِعِ! كم نَرْفو خروقَهُ بِمخيَطِ الحسناتِ ثمَّ

(١) الجُنَّة هي الساتر أو الواقي.



نَقْطعُهُ بحسامِ السَّيِّئاتِ القاطع!

كانَ بعضُ السَّلفِ إذا صَلَّى صلاةً استغْفَرَ مِن تقصيرِهِ فيها كما يَسْتَغْفِرُ المذنبُ مِن ذنبِهِ.

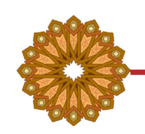
إذا كانَ هذا حالَ المحسنينَ في عباداتِهِم، فكيف حالُ المسيئينَ مثلِنا في عاداتِهِم؟!

وقريبٌ مِن هذا أمرُ النَّبيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لعائِشَةَ في ليلةِ القدرِ بسؤالِ العفوِ؛ فإنَّ المؤمنَ يَجْتَهِدُ في شهرِ رمضانَ في صيامِهِ وقيامِهِ، فإذا قَرُبَ فراغُهُ وصادَفَ ليلةَ القدرِ؛ لم يَسْألِ اللهَ إلاَّ العفوَ كالمسيءِ المقصِّرِ.

وأمَّا سؤالُ الجنَّةِ والاستعاذةُ مِن النَّارِ؛ فمِن أهمِّ الدُّعاءِ، وقد قالَ النَّبيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «حولَها نُدَنْدِنُ»[1]. فالصَّائمُ يُرْجى استجابةُ دعائِهِ، فيَنْبَغي ألاَّ يَدْعُو إلاَّ بأهمِّ الأُمورِ.

قالَ اللهُ تعالَى: ﴿فَمَن زُحۡزِحَ عَنِ ٱلنَّارِ وَأُدۡخِلَ ٱلۡجَنَّةَ

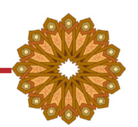
(١) أخرجه أبو داود (٧٩٢).



فَقَدْ فَازَ ﴾ وقالَ تعالى: ﴿ لَا يَسْتَوِىٓ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ وَأَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ ۚ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ هُمُ ٱلْفَآئِزُونَ ﴾ وقالَ تعالى: ﴿ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ شَقُوا۟ فَفِى ٱلنَّارِ... ﴾ إلى قولِهِ: ﴿ ۞ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ سُعِدُوا۟ فَفِى ٱلْجَنَّةِ ﴾.

عِبادَ اللهِ! إنَّ شهرَ رمضانَ قد عَزَمَ على الرَّحيلِ، ولم يَبْقَ منهُ إلاَّ القليل. فمَن منكُم أحْسَنَ فيهِ فعليهِ التَّمام، ومَن كانَ فَرَّطَ فلْيَخْتِمْهُ بالحسنى فالعملُ بالختام. فاستَمْتِعوا منهُ بما بَقِيَ مِن الليالي اليسيرةِ والأيَّام، واسْتَودِعوهُ عملاً صالحًا يَشْهَدُ لكُم بهِ عندَ الملكِ العلاَّم، وودِّعوهُ عندَ فراقِهِ بأزكى تحيَّةٍ وسلام.

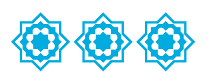
يا شهرَ رَمضانَ! تَرَفَّقْ، دموعُ المحبِّينَ لذهابِكَ تَدَفَّق، قلوبُهُم مِن ألمِ الفراقِ تَشَقَّق، عَسى وقفةٌ للوداعِ تُطْفِئُ مِن نارِ الشَّوقِ ما أحْرَق، عسى ساعةُ توبةٍ وإقلاعٍ تَرْفو مِن الصِّيامِ كلَّ ما تَخَرَّق، عَسى منقطعٌ عن ركبِ المقبولينَ يَلْحَقْ، عسى مَنِ اسْتَوْجَبَ النَّارَ يُعْتَق، عسى أُسراء الأوزارِ

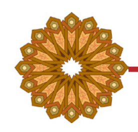


تُطْلَق، عسى رحمةُ المولى لها العاصي يُوَفَّق.

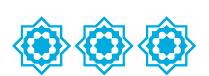
عَسى وَعسى مِنْ قَبْلِ وَقْتِ التَّفَرُّقِ ... إلى كُلِّ ما تَرجُو مِنَ الخَيْرِ تَرْتَقي

فَيُجْبَرَ مَكْسورٌ وَيُقبَلَ تائِبُ ... وَيُعْتَقَ خَطَّاءٌ وَيَسْعَدَ مَنْ شَقِي





الفهرس





التصميم الداخلي للكتاب
ثروت سلطان
Tharwat Sultan
للتواصل:
00201019530152
TharwatSultan@yahoo.com